هنري ميللر

أيام هادئة في كليشي

مكتبة بغداد



ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

هنري ميللر

أيام هادئة في كليشي

ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

هنري ميلر: أيام هادئة في كليشي، ترجمة: خالد الجبيلي

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان
تلفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ٠١ (٠٠٩٦١)

Henry Miller: Quiet Days in Clichy

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

أيام هادئة في كليشي

كنت لا أزال أكتب عندما بدأ الظلام يخيّم على المكان، وبدأ الناس يتوجهون لتناول العشاء. كان يوماً رمادياً، مثل الأيام التي يراها المرء غالباً في باريس. رحت أتمشى في الشارع لكي أنعش أفكاري، ولم أجد مناصاً من التفكير بالتناقض الهائل بين المدينتين (نيويورك وباريس). كان الوقت ذاته، واليوم يشبه هذا اليوم، لكن مع ذلك، لم تكن كلمة «رمادي» التي كانت السبب في توارد الأفكار هذا، تشبه كثيراً كلمة gris، التي يمكن أن تستدعي عالماً من الأفكار والمشاعر عندما يسمعها أي رجل فرنسي. ففي أحد الأيام، وبينما كنت أجوب شوارع باريس، أمعن النظر في اللوحات المرسومة بالألوان المائية المعروضة في واجهات المحلات، أدركت أن الشيء الوحيد الذي تفتقده هذه اللوحات هو اللون الذي يُعرف باللون الرمادي الداكن. إني أذكر ذلك جيداً لأن باريس، كما يعرف الجميع، مدينة رمادية إلى حد بعيد. إني أذكر ذلك لأنه، في عالم الألوان المائية، يستخدم الرسامون الأمريكيون هذا اللون الرمادي بإفراط شديد. أما هنا في فرنسا، فمن الواضح أن تدرجات اللون الرمادي لا نهاية لها. إن تأثير اللون الرمادي بحد ذاته هنا معدوم.

كنت أفكّر بعالم اللون الرمادي الهائل الذي عرفته في باريس، لأنني عندما أتجول عادة في هذه الساعة باتجاه الجادات العريضة، سرعان ما أجد نفسي أتوق لأن أعود إلى البيت وأكتب؛ وهو أمر مناقض لعاداتي الطبيعية تماماً. عندما

ينتهي يومي هناك، أنطلق بشكل غريزي لأختلط بجموع الناس. أما هنا، فإن جموع الناس تخلو من جميع الألوان، من جميع ظلال الألوان وطبقاتها، وتدفعني دفعاً لكي أنكفئ على نفسي، وترجعني إلى غرفتي لأبحث في مخيلتي عن عناصر الحياة المفقودة الآن، التي عندما تُمزج وتُستوعب جيداً، يمكنها أن تعطي الألوان الرمادية الناعمة الطبيعة اللازمة لخلق وجود منسجم وثابت. إن مجرد النظر إلى كنيسة القلب الأقدس من أيّ بقعة على امتداد شارع لافيت في يوم كهذا، وفي ساعة كهذه، يكفي لأن يجعلني أشعر بنشوة غامرة. وكانت تحدث فيّ التأثير ذاته حتى عندما أكون جائعاً ولا يوجد لدي مكان آوي إليه. هنا، حتى لو كان في جيبي ألف دولار، فإني لا أعرف مشهداً آخر يمكنه أن يثير فيّ شعوراً بالنشوة.

في يوم رمادي في باريس، غالباً ما أجد نفسي أسير صوب ساحة كليشي في مونمارتر. ومن كليشي إلى أوبيرفيله، حيث يوجد صف طويل من المقاهي والمطاعم والمسارح ودور السينما وبائعي الخرداوت والفنادق والمواخير. إنه شارع برودواي الباريسي الذي يشبه ذلك الامتداد الصغير بين الشارع الثاني والأربعين والثالث والخمسين في نيويورك. إن برودواي شارع سريع، مفعم بالحيوية، متلألئ، مبهر، يجعلك تشعر بالدوار، ولا يمكنك أن تجد مكاناً تجلس فيه. أما مونمارتر، فهو حيّ باهت، كسول، مبتذل، رث بعض الشيء، ووسخ، لا يوجد فيه ما يفتن ولا ما يغري، وهو لا يتلألأ، بل يتوهّج بنار تبعث دخاناً بدون لهب. وتبدو برودواي مثيرة، بل سحرية أحياناً، لكن لا توجد فيها نار، ولا حرارة؛ إنها معرض من الأضواء المنيرة المتلألئة، جنة وكلاء الإعلانات. أما مونمارتر فهي مكان رث، باهت، متداعٍ، رديء، مرتزق، سوقي. وإن كان ثمة شيء، فهو مكان طارد لا جاذب، لكنه طارد على نحو ماكر، مثل الرذيلة نفسها. ففيه حانات صغيرة تكاد لا تكتظ إلا بالعاهرات والقوادين والمجرمين والمقامرين الذين، حتى لو مررت من جانبهم أكثر من

ألف مرة، يجرونك وتكون أحد ضحاياهم. وهناك فنادق في الشوارع الجانبية المفضية إلى الجادة الرئيسية. وهي شوارع شديدة البشاعة إلى حد أن الرعشة تنتابك عندما تدخلها، ومع ذلك، يتحتم عليك أن تمضي في أحد تلك الفنادق ليلة، بل وربما أسبوعاً أو شهراً. بل ولعلك ترتبط بالمكان إلى حد أن تجد أن حياتك كلها قد تحوّلت ذات يوم، وأن ما كنت تعتبره بائساً، قذراً، حقيراً، تعيساً، أصبح اليوم ساحراً، لطيفاً، جميلاً. وأشكّ أن هذا السحر الماكر الذي يغلف مونمارتر، سببه تجارة الجنس المكشوفة. إن الجنس لا يصبح رومانسياً، وخصوصاً عندما يكون موضع بيع وشراء، لكنه يخلق رائحة لاذعة، تدعوك إلى الحنين الذي هو أكثر سحراً وإغواء من درب المتع الأبيض المتلألئ بالأنوار. في الحقيقة، إن الحياة الجنسية تزدهر أكثر في الضوء المعتم الدامس، إنها تعيش وتترعرع تحت الأضواء الخافتة، لا تحت وهج أضواء النيون.

عند ناصية ساحة كليشي، هناك مقهى ويبلير، الذي ظل لفترة طويلة مكاني المفضل الذي أرتاده. كنت أجلس داخل المقهى وخارجه طوال اليوم، وفي جميع أنواع الطقس. كنت أعرفه مثل كتاب. إن وجوه الندل، وأصحابه، وأمينات الصندوق، والعاهرات، والزبائن، بل وحتى الخدم الذين يعملون في دورة المياه، محفورة في ذاكرتي وكأنها رسوم في كتاب أقرأه كلّ يوم. أتذكّر أول يوم دخلت فيه إلى مقهى ويبلير في عام ١٩٢٨، مع زوجتي التي كنت أرعاها؛ لا أزال أتذكّر الصدمة التي اعترتني عندما رأيت عاهرة ثملة تقع فوق إحدى الطاولات الصغيرة على الرصيف، ولم يهرع أحد لمساعدتها. أحسست بالذهول والرعب من مشاعر اللامبالاة لدى الفرنسيين؛ ولا يزال ينتابني هذا الشعور، بالرغم من كلّ الصفات الجيدة التي يتميزون بها، والتي بدأت أتعرف عليها.

«لاشيء، إنها مجرد قحبة ...

إنها سكرانة».

لا أزال أسمع هذه الكلمات، التي تجعلني أرتجف حتى اليوم. لكن هذا

الموقف فرنسي بحت، وإذا لم تتعود عليه وتقبله، فإن إقامتك في فرنسا ستكون مزعجة للغاية.

في الأيام الرمادية الغائمة، عندما يتغلغل البرد القارس في كل مكان، إلا في المقاهي الكبيرة، كنت أتطلّع بسرور لقضاء ساعة أو ساعتين في مقهى ويبلير قبل أن أذهب لتناول العشاء. كان الوهج الوردي الذي يغمر المكان ينبعث من ثلة من العاهرات اللاتي كن يتجمّعن عادة قرب المدخل. وبعد أن كنّ يتوزعن وينتشرن شيئاً فشيئاً بين الزبائن، لا يعود المكان دافئاً وورديا فحسب، بل تغمره رائحة العطر أيضاً. فقد كنّ يرفرفن تحت الضوء الخافت مثل فراشات معطّرات. أما اللاتي لا يحالفهن الحظ في العثور على زبون، فيتسللن ببطء ويخرجن إلى الشارع، ليعدن بعد قليل ويأخذن أماكنهن القديمة. وكان بعضهن الآخر يتبختر ويبدو نضراً وجاهزاً لعمل المساء. وكانت الناصية التي يتجمعن فيها عادة، أشبه بسوق البورصة، سوق الجنس، الذي يتقلّب مثل أسواق البورصة الأخرى. إذ يكون اليوم الماطر عادة يوماً جيداً، كما أظن. وهناك شيئان وحيدان يمكنك أن تفعلهما في يوم ماطر، كما يقول المثل؛ ولم تكن العاهرات يضيّعن وقتهن في لعب الورق.

كان الوقت متأخراً بعد ظهر يوم ماطر عندما رأيت زائرة جديدة في مقهى ويبلير. كنت قد خرجت لشراء بعض الحاجيات، وكانت ذراعيّ محملتين بالكتب وأسطوانات الفونوغراف. لا بد أنني كنت قد تلقيت حوالة مالية غير متوقّعة من أمريكا في ذلك اليوم، لأنه كان لا يزال في جيبي بضع مئات من الفرنكات، بالإضافة إلى الأشياء التي اشتريتها. جلست قريباً من سوق البورصة، محاطاً بسرب من العاهرات النهمات، الجائعات، المتلهفات، اللاتي لم أجد صعوبة في التملّص منهن لأن عينيّ كانتا مثبتتين على تلك الفتاة الجميلة الفاتنة الجالسة وحدها في ركن قصي من المقهى. قلت لنفسي لا بد أنها شابّة جذّابة تنتظر حبيبها، ولعلها أتت قبل الموعد المحدد. ولم تكن قد لمست كأس الشراب الذي طلبته. وكانت ترمق الرجال الذين يمرون

من أمام طاولتها بنظرات طويلة ثابتة، لكن هذا لا يعني شيئاً ـ فالمرأة الفرنسية لا تشيح بعينيها كما تفعل المرأة الإنكليزية أو الأمريكية. كانت تتطلع حولها بهدوء، لكن من دون جهد واضح لجذب الانتباه. كانت رصينة ووقورة وقلقة. كانت تنتظر. كنت أنا أنتظر أيضاً. كان الفضول يشدني لمعرفة من تنتظر. بعد نصف ساعة، كانت خلالها عيناي قد التقتا بعينيها مرات عديدة، قرّرت أنها تنتظر أي شخص يتقدم إليها. وفي العادة، لم يكن عليك إلا أن تومئ برأسك أو بيدك حتى تترك الفتاة طاولتها وتنضم إليك، هذا إن كانت من ذلك النوع من الفتيات. لم أتأكد تماماً من ذلك بعد. كانت تبدو لي جذابة للغاية، رقيقة جداً، ومن منبت جيد.

عندما عاد النادل ثانية، أشرت إليها وسألته إن كان يعرفها. وعندما أجاب بالنفي، طلبت منه أن يدعوها لمشاركتي طاولتي. رحت أراقب وجهها وهو يسلّم لها رسالتي. انتابتني رعشة عندما رأيتها تبتسم وتنظر باتجاهي بإيماءة تقدير. توقّعت أن تنهض على الفور وتأتي إلى طاولتي، لكنها ظلت جالسة وابتسمت مرة أخرى، برصانة أكثر هذه المرة، ثم أشاحت بوجهها، وبدا أنها راحت تحدّق خارج النافذة، حالمة. انتظرت بضع لحظات، لكنني عندما رأيت أنها لم تكن تنوي أن تأتي بحركة، نهضت وسرت إلى طاولتها. حيّتني بوّد ولطف، كما لو كنت أحد أصدقائها، لكنني لاحظت أنها ارتبكت قليلاً، وبدا وكأنها أُحرجت. لم أكن متأكداً إن كانت تريدني أن أجلس أم أذهب، لكنني بالرغم من ذلك جلست، وبعد أن طلبت مشروبين، أشغلتها بسرعة في الحديث. كان صوتها أكثر إثارة من ابتسامتها؛ فقد كانت نبرة صوتها جميلة، ومنخفضة بعض الشيء، وفيها بحة. كان صوت امرأة سعيدة بأنها لا تزال على قيد الحياة، تداري شهواتها، غير مبالية وفقيرة، وتفعل أيّ شيء لتحافظ على مظهر الحرية الذي تمتلكه. كان صوت شخص مانح، منفق، وكانت فتنته تتوجه مباشرة إلى الحجاب الحاجز، لا إلى القلب.

يجب أن أعترف بأنني فوجئت عندما أسرعت لتقول إنني ارتكبت خطأً فادحاً

عندما أتيت إلى طاولتها. قالت: «ظننت أنك فهمت بأنني سأراك في الخارج. هذا ما كنت أحاول أن أقوله لك بطريقة التلغراف». وقالت إنها لا تريد أن يظن أحد هنا بأنها فتاة محترفة. اعتذرت عن الخطأ الفاحش الذي ارتكبته، واقترحت أن أنسحب وأعود إلى مكاني، فقبلت ذلك كبادرة رقيقة، لكنها تجاهلت الأمر، وضغطت على يدي، وارتسمت على وجهها ابتسامة رائعة.

«ما كلّ هذه الأشياء؟» قالت، لتغيّر الموضوع بسرعة، متظاهرة بأنها تبدي اهتماماً بالرزم التي كنت قد وضعتها على الطاولة.

«مجرد كتب واسطوانات»، قلت، ملمحاً بشكل ضمني إلى أن هذه الأشياء لا تثير اهتمامها.

سألتني: «هل هم مؤلفون فرنسيون؟» وأبدت فجأة قليلاً من الحماسة العفوية، كما بدا لي.

«نعم»، أجبت، «لكني أخشى أنهم كتّاب مملّون أيضاً. بروست، سيلين، إلي فور... أظن أنكِ تفضّلين موريس ديكوبرا، أليس كذلك؟»

«دعني أراها من فضلك. أريد أن أرى نوعية الكتب الفرنسية التي يقرأها شخص أمريكي».

فتحت الرزمة وأعطيتها كتاب إلي فور بعنوان «الرقص فوق النار والماء». راحت تقلّب صفحاته، تبتسم، وكانت تنبعث من فمها شهقة لطيفة وهي تقرأ هنا وهناك؛ ثم وضعت الكتاب على الطاولة بتأنٍ وأغلقته، ووضعت يدها فوقه وكأنها تريد أن تبقيه مغلقاً. وقالت: «هذا يكفي، دعنا نتحدّث عن شيء أكثر إثارة»، وبعد برهة من الصمت، أضافت قائلة: «هل هو حقاً فرنسي؟».

«بقضه وقضيضه»، أجبت، بابتسامة واسعة.

بدت مشوشة، وقالت «إنها لغة فرنسية رائعة»، تابعت كلامها، وكأنها تخاطب نفسها: «ومع ذلك، فهي ليست لغة فرنسية أيضاً... كيف يمكنني أن أقول؟».

كنت على وشك أن أقول إني فهمت تماماً، عندما تهالكت على الكرسي،

وأسندت ظهرها إلى الوسادة، وأمسكت يدي، وبابتسامة خبيثة تهدف إلى تعزيز صدقها، قالت: «انظر، أنا مخلوقة كسولة تماماً. ولا أملك الصبر على قراءة الكتب. إنها تثقل دماغي الضعيف».

«هناك أشياء كثيرة أخرى يستطيع المرء أن يفعلها في الحياة»، أجبت، أبادلها الابتسامة. وعندما قلت ذلك، وضعت يدي على ساقها وعصرتها بدفء. وعلى الفور غطّت يدها يدي، وراحت تزيحها إلى البقعة المكتنزة الناعمة. ثم، وبنفس السرعة تقريباً، سحبت يدي بعيداً وهي تقول: «هذا يكفي، فلسنا وحدنا هنا».

رحنا نجرع كأسينا، واسترخينا. لم أكن في عجلة من أمري لدفع الأمور بسرعة. ففي المقام الأول، بهرني كلامها الذي كان متميّزاً واكتشفت منه أنها ليست فتاة باريسية. فقد كانت تتكلم لغة فرنسية صافية، وكان الإنصات لها متعة بالنسبة لأجنبي مثلي. فقد كانت تخرج كلّ كلمة من فمها بوضوح شديد، ولم تكن تستخدم لهجة عاميّة، ولا عبارات محلية. كانت الكلمات تنبعث من فمها كاملة وبإيقاع بطيء، كما لو كانت تدحرجها في حلقها قبل أن ترسلها إلى الفراغ حيث يتحول الصوت والمعنى وينتقلان بسرعة شديدة. كان كسلها، الشهواني والمبهج للحواس، يغلّف بزغب ناعم كلماتها التي كانت تصل إلى أذنيّ وهي تطوف وتعوم مثل كرات من الزغب. كان جسدها ثقيلاً، جاثماً على الأرض، لكن الأصوات التي تنبعث من حنجرتها تشبه معزوفة موسيقية.

لقد خُلقت لذلك، كما يقول المثل، لكنها لم تعجبني كعاهرة. كنت متيقناً أن مرافقتها لي، وأخذها نقوداً لقاء ذلك، لن يجعلها امرأة عاهرة.

ومثل فقمة مدربة، وضعت إحدى يديها فوقه، فانتصبت لحمتي بسرعة وببهجة، بسبب مداعبتها الرقيقة لها.

«تمالك نفسك»، دمدمت، «ليس من الجيد أن تُثار بهذه السرعة».

«هيا لنخرج من هنا»، قلت، وأشرت إلى النادل.

«نعم»، قالت، «لنذهب إلى مكان نستطيع أن نتكلّم فيه على راحتنا».

كلما قلّ الكلام، كان أفضل، قلت لنفسي، وأنا ألملم أشيائي وخرجت معها إلى الشارع. كانت مؤخرتها رائعة، قلت وأنا أرقبها بتمعن، وهي تنسل خارجة من الباب الدوّار. وعلى الفور رأيتها معلقة فوق طرف قضيبي، قطعة ممتلئة من اللحم الطازج بانتظار أن تُعالج وتُشذّب.

عندما بدأنا نجتاز الجادة، قالت إنها سعيدة جداً لأنها عثرت على شخص مثلي. فهي لا تعرف أحداً في باريس، إنها وحيدة. لعلي يجب أن أطوف بها في باريس وأريها المدينة؟ فمن الممتع أن يقوم غريب بعمل دليل سياحي لشخص من أبناء البلد ويطوف به أرجاء المدينة، عاصمة بلده. هل كنت قد ذهبت إلى أمبواز أو بلوا أو تور؟ ربما نذهب لزيارة هذه الأماكن معاً ذات يوم. يمكننا أن نذهب في رحلة معاً يوماً ما. «هل يعجبك ذلك؟».

رحنا نسير، نتحدث، حتى وصلنا إلى فندق كان يبدو أنها تعرفه. قالت: «هذا المكان نظيف ومريح»، وأضافت، «وإذا كان بارداً قليلاً، فإن أحدنا سيدفئ الآخر في السرير». وضغطت على ذراعي بحنان ومودة.

كانت الغرفة دافئة ومريحة مثل عشّ. انتظرت لحظة حتى جلبت الخادمة الصابون والمناشف، ونفحتها إكرامية، وأقفلت الباب. خلعت قبعتها وقطعة الفراء، وانتظرت حتى تعانقني بالقرب من النافذة. كانت قطعة لحم دافئة ولذيذة! ظننت أنها ستتلاشى تحت لمساتي. وبعد بضع لحظات بدأنا نخلع ثيابنا. جلستُ على حافة السرير لأفك رباط حذائي. كانت تقف إلى جانبي، تخلع ثيابها. عندما رفعت عيني إلى الأعلى، لم يكن ثمة شيء يسترها سوى جواربها النسائية. وقفت هناك تنتظرني أن أتفحصها بدقة أكبر. نهضت، وضممتها وأطبقت ذراعيّ حولها ثانية، وراحت يدي تجوس بتأن فوق طيّات لحمها المتموّجة. تملصت من بين ذراعي، وأمسكتني على مبعدة وسألت بحياء عما إن كنت قد خُدعت بعض الشيء.

«خُدعت ؟» قلت مردداً، «ماذا تقصدين؟»

«ألست شديدة البدانة؟» قالت، وأطرقت عينيها واستقرتا فوق سرتها.

«شديدة البدانة؟ لماذا، إنكِ رائعة.

إنك مثل لوحة من لوحات رينوار».

تضرج وجهها خجلاً. «لوحة من لوحات رينوار؟» كرّرت، وكأنها لم تسمع هذا الاسم من قبل، وأضافت، «لا، إنك تمزح».

«أوه، ما عليكِ. تعالي، دعيني أداعب قطتك».

«انتظر، يجب أن أغتسل أولاً». وعندما تحرّكت نحو المِشطفة، قالت: «اصعد إلى السرير. اجعله لطيفاً ودافئاً».

خلعت ثيابي بسرعة، وغسلت قضيبي من باب الكياسة، واندسست بين الشراشف. كانت المشطفة إلى جانب السرير. وعندما أنهت غسولها راحت تجفف نفسها بالمنشفة البالية الرقيقة. انحنيت وأمسكت أجمتها ذات الشعر الأشعث، التي كانت لا تزال ندية قليلاً. دفعتني إلى الخلف على السرير، وانحنت فوقي، وانقضت بسرعة عليه بفمها الأحمر الدافئ. دسست إصبعاً في داخلها لكي يبدأ عصيرها يتدفق من ينبوعها. ثم سحبتها فوقي، ودفعته كله في أعماقها. كان فرجها من تلك الفروج التي تنسل فيها مثل قفاز. وسرعان ما جعلتني انقباضاتها العضلية الماهرة ألهث. وكانت طوال الوقت تلعق رقبتي، وإبطي، وشحمتي أذني. وبيدي الاثنتين رحت أرفعها وأخفضها، وكانت تهز حوضها بشكل دائري. وأخيراً، متأوهة، انقضت عليّ بكامل وزنها.

قلبتها على ظهرها، ورفعت ساقيها وأسندتهما فوق كتفي، ورحت أرهزها. وخيّل إليّ أنني لن أتوقف عن القذف؛ فقد كان السيل يندفع بلا انقطاع، وكأنه ينبثق من خرطوم حديقة. وعندما استللته، بدا لي أنه أصبح أكثر انتصاباً مما كان عندما أولجته فيها.

«إنه حقاً شيء» قالت، ووضعت يدها حوله وراحت تفركه بأصابعها بتقدير: «إنك تعرف كيف تفعل ذلك، أليس كذلك؟»

نهضنا، اغتسلنا، ثم عدنا وزحفنا إلى السرير. متكئاً على مرفقي، رحت أجوس بيدي فوق جسدها. كانت عيناها تومضان عندما استلقت على ظهرها، مسترخية تماماً، ساقاها منفرجتان، لحمها نابض. لم يفه أحدنا بكلمة لدقائق عديدة. أشعلت لها سيجارة، ووضعتها في فمها، وغصت في السرير، ورحت أحدّق بسعادة في السقف.

«هل سيرى أحدنا الآخر مرة أخرى؟» سألتها بعد وهلة.

«هذا يتوقف عليك»، قالت، وأخذت نفساً عميقاً من سيجارتها. انقلبت لتطفئ سيجارتها، واقتربت مني، وهي تحدّق فيّ بثبات، تبتسم، لكن بجدّية، وقالت بصوتها الخفيض، المغرّد: «اسمع، يجب أن أكلّمك بجدية. أريد أن أطلب منك معروفاً كبيراً... إنني في ورطة، ورطة كبيرة. هل يمكنك أن تساعدني إذا طلبت منك ذلك؟»

«طبعاً»، قلت، «لكن كيف؟»

«أعني نقوداً»، قالت بهدوء وببساطة، «أحتاج إلى نقود كثيرة... يجب أن أحصل عليها. لا أستطيع أن أشرح السبب. أرجو أن تصدقّني».

انحنيت وسحبت بنطالي من فوق الكرسي، ورحت أنبش في جيبي وأخرجت كل ما فيه من أوراق وقطع نقدية، وأعطيتها لها.

قلت: «أعطيكِ كل ما لديّ. هذا كلّ ما يمكنني أن أفعله لك».

وضعت النقود على المنضدة الصغيرة إلى جانبها، ومن دون أن تنظر إليها، انحنت وقبّلت حاجبي، وقالت: «إنك رجل طيب وكريم». لبثت منحنية فوقي، تنظر في عيني بشكر صامت مخنوق، ثم طبعت قبلة على فمي. لم تكن قبلة محمومة، بل قبلة بطيئة، طويلة، وكأنها تنقل مشاعر المودّة التي لم تستطع أن تعبّر عنها بكلمات، والتي كانت مرهفة للغاية لكي تقدمها بجسدها.

«لا أستطيع أن أقول أيّ شيء الآن»، قالت، وارتمت على الوسادة: «إنني في غاية السعادة»، ثم أضافت: «من الغريب أن أبناء قومك ليسوا بطيبة

الغرباء. أنتم الأمريكيون أناس لطيفون للغاية، أناس في غاية الرقة. يجب أن نتعلم أشياء كثيرة منكم».

كانت هذه اللازمة بمثابة أغنية قديمة بالنسبة لي، وكدت أشعر بالخجل من نفسي لأنني تصرفت مرة ثانية باعتباري ذلك الأمريكي الكريم. وأوضحت لها أن وجود نقود كثيرة في جيبي كان مجرد صدفة. فأجابت أن تصرفي كان أكثر من رائع، بادرة عظيمة، وقالت: «كان الرجل الفرنسي سيخبئها، ولن يعطيها إلى أول فتاة يلتقيها لمجرد أنها تحتاج إلى مساعدة، ولن يصدقها في المقام الأول، وسيقول لها: إني أعرف جيداً هذه الأغنية».

لم أقل لها أكثر من ذلك. هذا صحيح وغير صحيح، ففي العالم جميع أنواع البشر. ومع أني لم ألتق حتى الآن بفرنسي كريم، فإني أؤمن بأن هناك فرنسيين كرماء. ولو قلت لها إنه يوجد الكثير من أصدقائي ومن أبناء جلدتي بخلاء وغير كريمين، لما صدقتني. وإذا أضفت أن ما دفعني إلى عمل ذلك لم يكن بدافع الكرم، بل بدافع رثاء الذات، فأنا نفسي أعطي لذاتي (لأني لم أرَ أحداً كريماً معي كما أفعل أنا) فلعلها ظنت أني رجل مخبول قليلاً.

دنوت منها ودفنت رأسي في صدرها. انزلق رأسي إلى الأسفل، ورحت ألعق سرتها، ثم واصلت انحداري إلى الأسفل، وبدأت أقبّل أجمتها الكثيفة الشعر. رفعت رأسي إلى الأعلى ببطء، وجرتني لكي أستلقي فوقها، وغاص لسانها في فمي. انتعظ قضيبي على الفور، وانسّل فيها بشكل طبيعي كما ينزلق المحرّك داخل المفتاح الكهربائي. انتصب قضيبي بطريقة تجعل النساء يفقدن صوابهن، ورحت أحركه وأنقله في داخلها كما أشاء، فتارة أعتليها، وتارة تعتليني، ثمّ أولجه وهي مستلقية على جانبها، ثم أستله إلى الخارج ببطء، مستثيراً إياها، أدلّك شفريها برأس قضيبي المنتفخ. وأخيراً، استليته كله ورحت أمرره فوق نهديها وحولهما. نظرت إليه مندهشة، وسألتني «هل قذفت؟» فقلت: «لا. سنحاول أن نفعل شيئا آخر الآن». وجررتها من فوق

السرير، وجعلتها تأخذ وضعية ملائمة كي آتيها من الخلف. مدّت يدها بين فخذيها وأولجته في داخلها، وراحت تهزّ ردفيها بشكل دائري على نحو مثير ومغرٍ. أمسكتها بقوة من خصرها، وبدأت أقذف في أحشائها. «أوه، أوه، هذا رائع، هذا مدهش»، راحت تنخر، وتدفع بمؤخرتها بطريقة مسعورة. سحبته منها ثانية لكي يأخذ نفساً، ورحت أدعكه وأفركه فوق ردفيها مداعباً. «لا، لا»، صاحت مستجدية، «لا تفعل ذلك. أدخله فيّ، أدخله فيّ كله... لم يعد بمقدوري الانتظار أكثر من ذلك». ومرّة أخرى مدّت يدها إلى الوراء وأمسكته وأولجته فيها، وهي لا تزال تنحني أكثر، وتندفع إلى الأعلى وكأنها تريد أن تعلو وتصل إلى الثريا. بدأت أحس أني بدأت أقذف للمرة الثانية، من منتصف عمودي الفقري؛ فثنيت ركبتيّ قليلاً، ودفعته فيها مرّة أو مرّتين. ثم انفجر مثل صاروخ منطلق إلى عنان السماء.

كانت الساعة تقترب من وقت العشاء عندما افترقنا في الشارع أمام مبولة. لم أضرب معها موعداً آخر، بل حتى أني لم أسألها عن عنوانها، لكنني فهمت ضمناً أن المقهى هو المكان الذي يمكنني أن أجدها فيه. وما إن بدأت أودّعها، حتى خطر لي فجأة أنني لم أسألها حتى عن اسمها. ناديتها ولم أسألها عن اسمها الكامل بل عن اسمها الأول. فقالت : «ن ـ ي ـ س»، وقد تهجته «مثل مدينة نيس». تركتها وأنا أكرر هذه الكلمة في داخلي. لم أسمع قط أنه توجد فتاة بهذا الاسم. بدا لي اسماً يشبه اسم حجر كريم.

عندما بلغت ساحة كليشي، أدركت أنني أكاد أتضور جوعاً. وقفت أمام مطعم للسمك في جادة كليشي، ورحت أقرأ بإمعان قائمة الطعام المعلقة خارج المطعم. شعرت بالرغبة في تناول سرطان البحر والمحار والحلزون والسمك المشوي وعجة البندورة، وبعض قطع الهليون الطرية، وقطعاً من الجبن اللذيذ، ورغيف خبز، وقنينة نبيذ باردة، وقليلاً من التين والبندق. تحسست جيبي، كما أفعل دائماً قبل أن أدخل أي مطعم، ووجدت معي «سو»

صغيراً جداً. «خراء»، قلت لنفسي، «لو كانت قد تركت لي بضعة فرنكات على الأقل».

رحت أغذّ الخطى عائداً إلى البيت لأرى إن كان هناك طعام متبقٍ في البيت. كان البيت الذي كنا نعيش فيه في كليشي خلف البوابات، يبعد مسافة نصف ساعة مشياً على الأقدام. لا بد أن كارل تناول طعام عشائه، لكن لعله ترك كسرة من الخبز وقليلاً من النبيذ على المائدة. رحت أسير بسرعة، وكان جوعي يزداد مع كل خطوة أخطوها.

ما إن وصلت حتى اندفعت إلى المطبخ، وبنظرة خاطفة عرفت أنه لم يتناول الطعام. رحت أفتّش في كل مكان، لكنني لم أجد كسرة خبز واحدة. ولم تكن هناك ولا قنينة نبيذ فارغة يمكنني أن أبيعها. أصبحت كالمسعور. اندفعت خارجاً، وقررت أن أسأل صاحب المطعم الصغير القريب من ساحة كليشي، حيث أتناول طعامي في غالب الأحيان، أن يسجل ثمن الوجبة بالدين. عندما وصلت إلى المطعم، فقدت شجاعتي وعدت أدراجي. رحت أمشي على غير هدى، راجياً أن تتحقق معجزة وأصادف أحداً أعرفه. همت على وجهي قرابة الساعة، حتى بلغ بي الإنهاك مبلغه، وقرّرت أن أعود إلى البيت وأخلد إلى النوم. في الطريق تذكرت صديقاً روسياً، يعيش بالقرب من الجادة الخارجية. لقد مضى زمن طويل على رؤيتي له آخر مرة. كيف يمكنني أن أزوره وأنا في هذه الحالة، وأطلب منه صدقة؟ ثم لمعت في رأسي فكرة رائعة، وهي أن أعود إلى البيت، وأجلب الاسطوانات وأقدمها له كهدية صغيرة. سيكون الأمر أسهل بهذه الطريقة. فبعد بضعة تمهيدات، يمكنني أن أقترح أن يقدم لي سندويشة أو قطعة كاتو. رحت أغذّ خطاي، مع أني كنت منهكاً مثل كلب، وكنت أعرج في مشيتي.

عندما عدت إلى البيت رأيت أن الساعة بدأت تقترب من منتصف الليل. شعرت بالانهيار التام. لا جدوى من التفكير بالقيام بغزوة أخرى؛ سآوي إلى فراشي متمنياً أن يحدث شيء في الصباح. بينما كنت أخلع ثيابي، خطرت لي

فكرة أخرى، هذه المرّة، لم تكن فكرة ذكية، لكنني مع ذلك... توجهت إلى المغسلة وفتحت الخزانة الصغيرة التي تُوضع فيها صفيحة القمامة. رفعت غطاء الصفيحة ونظرت في داخلها. كان في قعر الصفيحة بضع عظمات وكسرة خبز يابسة. أخرجت الكسرة اليابسة، وقشطت بعناية الأجزاء الملوثة لكي لا أفقد الكثير منها بقدر الإمكان، ثم بللتها تحت الحنفية. ورحت أقضمها ببطء، منتزعاً قدر ما يمكنني من كلّ كسرة. ما إن ابتلعتها، حتى ارتسمت على وجهي ابتسامة، وبدأت تزداد اتساعاً. غداً، قلت لنفسي، سأعود إلى المحل وأعرض عليه أن يشتري الكتب بنصف أو ثلث سعرها، بل حتى ربع ثمنها، وكذا الأمر بالنسبة للأسطوانات. يجب أن أجلب عشرة فرنكات، على الأقل، لكي أتناول وجبة فطور دسمة، وبعد ذلك... حسناً، بعد ذلك، فليحدث ما يحدث. سنرى... اتسعت الابتسامة على وجهي، وكأني ابتسم لأن معدتي امتلأت جيداً. بدأت تتملكني روح مرحة رائعة. نيس تلك، لا بد أنها تناولت وجبة طعام مشبعة ودسمة. ربما تناولتها مع عشيقها. لم يكن لديّ أدنى شكّ بأن لديها عشيق. لا شكّ أن مشكلتها العظيمة، معضلتها الكبرى، هي كيف تغذيه جيداً، وكيف تشتري له الثياب والأشياء الصغيرة الأخرى التي يشتهيها. حسناً، كانت نيكة ملوكية، مع أنني نكحت نفسي أيضاً في هذه الصفقة. يمكنني أن أتخيلها وهي ترفع المنديل إلى شفتيها الممتلئتين الناضجتين لتمسح عنهما صلصة الدجاجة الطرية التي طلبتها. تساءلت عن ذوقها بالنبيذ. كم أتمنى أن تستطيع أن تذهب معي إلى ريف تورين، لكن هذا يحتاج إلى نقود كثيرة، لكنني لا أملك هذا المال الكثير في حياتي. إطلاقاً. لكن لا ضير من أن أحلم بذلك. شربت كأساً أخرى من الماء. عندما أعدت الكأس، رأيت قطعة من جبنة روكفور في زاوية الخزانة. كم تمنيت أن تكون هناك كسرة أخرى من الخبز! ولكي أتأكد من أنني لم أهمل شيئاً، فتحت علبة القمامة ثانية. كانت تحدّق في وجهي بضع عظمات ملقاة في زبد الدهن المتعفّن.

كنت أريد قطعة أخرى من الخبز، وكنت أريدها بقوة. لعلي أستطيع أن أستعير قطعة كبيرة من أحد الجيران. فتحت باب القاعة وخرجت على أطراف أصابعي. كان يسود صمت القبور. وضعت أذني على أحد الأبواب، ورحت أتنصت. تناهى إليّ صوت سعال طفل خفيف. لا فائدة. حتى لو كان هناك شخص مستيقظ فلا جدوى من ذلك. لكن ليس في فرنسا، فمن سمع عن فرنسي قرع باب جاره في هدأة الليل ليطلب منه كسرة خبز؟ «خراء!» تمتمت لنفسي، «للتفكير بكلّ الخبز الذي ألقينا به في علبة القمامة!» قضمت قطعة من جبن روكفور. كانت قديمة وحامضة؛ تفتتت إلى قطع صغيرة، مثل قطعة من الجص المنقوعة في البول. تلك الكلبة، نيس! لو كنت أعرف عنوانها لذهبت إليها واستجديتها أن تعيد لي بضعة فرنكات. لا بد أنني فقدت عقلي عندما أعطيتها كل شيء ولم أحتفظ بأي شيء. إن إعطاءك قحبة نقوداً يشبه رميك تلك النقود في البالوعة. فما حاجتها إلى النقود! قميص داخلي آخر، على الأغلب، أو جوارب حريرية شفافة كانت قد شاهدتها عندما كانت تمر من أمام واجهة أحد المحال.

بدأ الغضب يتملكني. كلّ ذلك لأنه لا توجد كسرة خبز أخرى في البيت. غباء! غباء تام! في هذياني بدأت أفكّر بعصير ممزوج بالحليب، وكيف يوجد في أمريكا دائماً كأس إضافي في انتظارك في الخلاط. كانت تلك الكأس الإضافية رائعة. في أمريكا، هناك دائماً أكثر مما تحتاجه، لا أقل. عندما خلعت ثيابي، رحت أتحسس أضلاعي. كانت بارزة مثل أطراف الأكورديون. تلك القحبة الصغيرة المكتنزة، نيس ـ من المؤكد أنها لم تكن تموت من سوء التغذية. مرة أخرى، خراء! إلى السرير.

ما كدت أسحب الأغطية فوقي حتى بدأت أضحك ثانية. هذه المرة كان الأمر مرعباً. فقد رحت أضحك بشكل هستيري إلى حد أنني لم أستطع التوقّف. كان الأمر أشبه بألف شمعة رومانية تنطفئ في الحال. ومهما حاولت

أن أفكّر بذلك، ومهما حاولت أن أفكّر بأشياء حزينة، بل حتى بأشياء فظيعة، لم أتمكن من التوقف عن الضحك. *كل ذلك بسبب كسرة خبز صغيرة!* كانت تلك هي العبارة التي أخذت تتكرر في داخلي على نحو متقطّع، والتي ألقت بي في نوبات متجدّدة من الضحك.

كان قد مضى على استلقائي في السرير حوالي ساعة عندما سمعت كارل يفتح الباب. اتجّه مباشرة إلى غرفته وأغلق الباب. شعرت برغبة شديدة في أن أطلب منه أن يخرج ويشتري لي سندويشة وقنينة نبيذ. ثم طرأت ببالي فكرة أفضل. أن أنهض مبكراً، وهو لا يزال يغط في النوم وأسطو على جيوبه. وبينما كنت أتقلب في السرير، سمعته يفتح باب غرفته ويذهب إلى الحمّام. كان يقهقه ويهمس إلى مومس، على الأغلب، لا بد أنه التقطها في طريق عودته إلى البيت.

عندما خرج من الحمّام، ناديته.

«إذاً، أنت مستيقظ؟» قال مبتهجاً، «ما المشكلة، هل أنت مريض؟»

أوضحت له أنني جائع، أتضور جوعاً. هل يوجد معه قليل من النقود؟

قال: «لقد نُظِّفت منها تماماً». قال ذلك ببهجة، وكأنه أمر عديم الأهمية.

«ألا يوجد معك فرنك واحد على الأقل؟» سألته.

«لا تلق بالاً بالفرنكات»، قال، وجلس على حافة السرير وقد بدت عليه سيماء رجل يريد أن يفضي بخبر هام، «لدينا أمور أكثر أهمية يجب أن نفكّر بها الآن. لقد جلبت معي فتاة متشردة. لا أظن أنها تتجاوز الرابعة عشرة من العمر. لقد ضاجعتها للتو. هل سمعتني؟ أرجو أن لا أكون قد افتضضتها. فهي عذراء».

«تقصد أنها كانت»، قلت.

«اسمع يا جوي»، قال مخفضاً صوته ليجعله أكثر إقناعاً، «يجب أن نفعل شيئاً لها. لا يوجد لديها مكان تقيم فيه...

لقد هربت من بيتها. وجدتها تمشي شاردة، في غيبوبة، نصف جائعة، ومجنونة بعض الشيء. هكذا خيّل لي في بادئ الأمر. لا تقلق، كل شيء على ما يرام. إنها ليست فتاة ذكية جداً، لكنها من النوع الجيد. ربما كانت تنتمي إلى عائلة جيدة. إنها مجرد طفلة... سترى. لعلي سأتزوجها عندما تبلغ سن الرشد. في جميع الأحوال، لا أملك نقوداً. لقد أنفقت آخر سنت معي بعد أن اشتريت لها وجبة طعام. ما أسوأ أن تنام بدون عشاء. كان يجب أن تكون معنا. لقد تناولنا المحار وسرطان البحر والقريدس ونبيذاً رائعاً. شابلي، في سنة...»

«اللعنة على السنة!» صحت، «لا تقل لي ماذا أكلت. إن بطني خاوية مثل صفيحة القمامة. لقد أصبح لدينا الآن ثلاثة أفواه يجب إطعامها، ولا يملك أحدنا نقوداً، ولا حتى سو واحد».

«هوّن عليك يا جوي»، قال باسماً، «إنك تعرف أنني أحتفظ ببضعة فرنكات دائماً في جيبي من أجل حالات الطوارئ كهذه». غاصت يده في جيبه وأخرج بضع قطع نقدية. كانت كلها تبلغ ثلاثة فرنكات وستين سو. ثم قال: «بهذا المبلغ يمكنك أن تشتري فطوراً. الصباح رباح».

في تلك اللحظة، مدّت الفتاة رأسها من الباب. قفز كارل وأحضرها إلى السرير. وقال: «كوليت»، ما إن مددت يدي لأحييها. «ما رأيك فيها؟»

قبل أن يتاح لي الوقت لأجيبه، اتجهت الفتاة نحوه، كما لو كانت خائفة، وسألته عن اللغة التي نتحدث بها.

«ألا تعرفين اللغة الإنكليزية عندما تسمعينها؟» سألها كارل، ورمقني بنظرة تقول ألم أقل لك إنها ليست ذكية جداً.

احمّر وجه الفتاة بارتباك، وقالت بسرعة إنها ظنت في بادئ الأمر أنها لغة ألمانية، أو ربما بلجيكية.

«إنها ليست لغة بلجيكية!» قال كارل ساخطاً، ثمّ التفت إليّ وقال: «إنها

حمقاء صغيرة. لكن انظر إلى هذين النهدين! إنهما ناضجان بالنسبة لعمرها في الرابعة عشرة، ما رأيك؟ إنها تقسم بأنها في السابعة عشرة من عمرها، لكنني لا أصدقها».

وقفت كوليت تستمع إلى هذه اللغة الغريبة، غير قادرة على أن تفهم لماذا لا يتحدث كارل باللغة الفرنسية. ثم قالت أخيراً إنها تريد أن تعرف إن كان كارل فرنسياً حقاً. فقد بدا أن هذا الأمر في غاية الأهمية بالنسبة لها.

«من المؤكد أنني فرنسي»، قال كارل مبتهجاً، «ألا تستطيعين أن تميزي من كلامي؟ هل أتكلم مثل *أحد البوش*؟ هل تريدين أن تري جواز سفري؟»

«من الأفضل ألا تريه لها»، قلت، بعد أن تذكرت أنه يحمل جواز سفر تشيكياً.

قال لها: «هل تريدين أن تأتي وتلقين نظرة على الملاءات؟» وطوّق خصر كوليت بذراعه، «أظن أنه يجب أن نرميها. لا أستطيع أن آخذها إلى المغسلة لأنهم سيشكون بأنني ارتكبت جريمة».

«اطلب منها أن تغسلها»، قلت هازلاً.

«هناك أشياء كثيرة تستطيع فعلها إذا أرادت أن تبقى معنا».

«إذاً، فأنت تريدها أن تمكث معنا في البيت؟ أظن أنك تعرف أن هذا أمر غير قانوني؟ قد يُزج بنا في السجنّ لهذا السبب».

قلت له: «اجلب لها بيجاما، أو ثوب نوم. لأنها إذا بدأت تطوف في الليل وهي ترتدي القميص الداخلي المجنون هذا، فقد أنسى نفسي وأغتصبها».

نظر إلى كوليت وانفجر ضاحكاً.

«ماذا في الأمر؟» صاحت، «هل تسخران مني؟ لماذا لا يتحدث صديقك بالفرنسية؟»

فقلت: «إنك محقة. من الآن وصاعداً لن نتكلم إلا باللغة الفرنسية ولا شيء إلا الفرنسية. اتفقنا؟».

ارتسمت على وجهها ابتسامة طفولية واسعة. انحنت وقبلتني على خديّ كليهما. عندما فعلت ذلك، اندلق نهداها ولامسا وجهي. ثم انفتح القميص الداخلي وسقط كله، فانكشف جسدها الصغير الممتلئ البديع.

قلت: «يا إلهي، أبعدها عني واحجزها في غرفتك، فلن أكون مسؤولاً عما يحدث إذا أخذت تتجول في أرجاء البيت في هذا القميص عندما تكون خارج البيت».

طلب منها كارل أن تعود إلى غرفته، وجلس ثانية على حافة السرير، وأخذ يقول: «لدينا مشكلة يا جوي، ويجب أن تساعدني. لا يهمني ماذا تفعل بها عندما أدير ظهري. فأنا لست غيوراً، وأنت تعرف ذلك. لكن يجب ألا تدعها تقع في أيدي الشرطة. فإذا وجدوها فإنهم سيأخذونها وربما أخذونا نحن أيضاً. المهم ماذا سنقول لبواب البناية؟ فأنا لا أستطيع أن أسجنها مثل كلب. ربما كان بوسعي أن أقول إنها ابنة عمي، وقد جاءت لزيارتي. في الليل، عندما أذهب إلى العمل، خذها إلى السينما. أو خذها في جولة. إنها فتاة سهلة الإرضاء. علّمها الجغرافيا أو أي شيء آخر، إنها لا تعرف شيئاً. كن طيباً معها يا جوي. ستحسّن لغتك الفرنسية... ولا تقربها إن استطعت، فلا أملك نقوداً لإجهاضها، بالإضافة إلى أنني لا أعرف أين يعيش صديقي الطبيب الهنغاري».

كنت أنصت إليه بصمت. إن كارل عبقري في التورط في المشاكل. كانت المشكلة، أو ربما الفضيلة، أنه لا يستطيع أن يقول لا. إن معظم الناس يقولون لا على الفور، بدافع غريزي أعمى. أما كارل فإنه يقول باستمرار نعم، بالتأكيد، طبعاً. إنه يعيش حياته بدافع اللحظة، وهو يعرف في أعماقه، كما أظن أن الغريزة التي تقي المرء هي التي تجعل الآخرين يقولون لا، تعمل في اللحظة الحرجة. وبكل دوافعه الحارة السخية، ورقة قلبه وحنانه الغريزيين، كان أيضاً أكثر الأشخاص المراوغين الذين عرفتهم في حياتي. لا يوجد أحد، أو قوة على وجه الأرض تستطيع أن تهزمه ما أن يقرر أن يحرر نفسه. إنه

شخص زلق مثل سمك الإنكليس، ماكر، عبقري، مستهتر إلى أبعد الحدود، إنه يغازل الخطر، لا بدافع الشجاعة، بل لأن ذلك يمنحه فرصة لشحذ ذكائه، لممارسة الجوجيتسو. وعندما يسكر، يصبح أحمق، طائشاً وجريئاً. وإذا تحديته يمكنه أن يدخل مخفر شرطة ويصيح «خراء» بأعلى صوته. وإذا ألقوا القبض عليه، فإنه يعتذر ويقول لا بدّ أنه فقد عقله موقتاً. ويفلت من الأمر! كان يمارس هذه الخدع الصغيرة بسرعة كبيرة، إلى حد أنه عندما يعود رجال الشرطة المذهولون إلى صوابهم، يكون قد ابتعد، وربما تراه جالساً في أحد مقاهي الرصيف، يرشف البيرة، ويبدو بريئاً كالحمل.

وعندما كان كارل يقع في ضائقة، كان يرهن آلته الكاتبة على الدوام. في البداية، كان يحصل على أربعمائة فرنك لقاء رهنها، وهو مبلغ لا يُستهان به في ذلك الوقت. وكان يحيطها بعناية شديدة، لأنه كان مرغماً في كثير من الأحيان على الحصول على مال. ولا أزال أحتفظ بصورة مشرقة عنه وهو يزيل الغبار عنها كلما جلس ليطبع عليها أو يزيّتها، ويغطيها بعناية شديدة عندما ينتهي من الكتابة. ولاحظت أيضاً أنه كلما رهنها كان يشعر في سريرته بالارتياح، فقد كان ذلك يعني أنه يستطيع أن يحصل على عطلة من دون أن يشعر بعذاب الضمير. لكنه عندما كان ينفق النقود، ويتوفر لديه الوقت، يزداد شعوراً بالتوتر؛ وفي هذه الأوقات، عندما يشتم، كانت تخطر له دائماً أكثر أفكاره ذكاء، وإذا ألحّت عليه الأفكار، واستحوذت على تفكيره، كان يشتري لنفسه دفتراً صغيراً ويذهب إلى مكان بعيد ليدّونها، مستخدماً أكثر أقلام الباركر التي رأيتها في حياتي أناقة. ولم يكن يعترف لي على الإطلاق بأنه يدوّن ملاحظات سراً، إلا بعد مرور فترة طويلة على ذلك. بل كان يعود إلى البيت حانقاً ساخطاً، ويقول إنه اضطر لأن يمضي نهاره عبثاً. وإذا اقترحت عليه أن يذهب إلى مكتب الصحيفة التي يعمل فيها ليلاً، وأن يستخدم واحدة من الآلات الكاتبة الموجودة عندهم، كان يخترع سبباً جيداً ليبرر استحالة هذا الأمر.

أذكر موضوع الآلة الكاتبة لأنها لا تتوفر لديه عندما يكون في أمس الحاجة إليها، لأنه لا يفتأ أن يصعّب الأمور على نفسه. فقد كانت الأداة الفنية التي كانت تعمل لمصلحته دائماً على الرغم من جميع الأدلّة التي تظهر عكس ذلك. ولو لم يُحرم من هذه الآلة بين الحين والآخر، لجفّت أفكاره ونضبت بسبب شعوره بالقنوط التام، ولظل عقيماً. فقد كانت قدرته على البقاء تحت الماء، مثلاً، استثنائية. وكان معظم الناس الذين يرونه في ظروف انغماسه، ينصرفون عنه عادة ويعتبرونه شخصاً ضائعاً. لكنه لم يتعرض حقاً لخطر السقوط إلى الأبد؛ وإن كان يعطي ذلك الانطباع، فلأنه يحتاج إلى أكثر من مجرد العطف والاهتمام. وعندما يطفو إلى السطح، ويبدأ برواية تجاربه تحت الماء، كان ذلك أشبه بالوحي. وكان ذلك يثبت في المقام الأول أنه كان حيّاً طوال الوقت؛ وليس حيّاً فقط، بل شخصاً دقيق الملاحظة، كما لو كان يسبح مثل سمكة في حوض للأسماك؛ وكأنه يرى كلَّ شيء عبر زجاجة مكبّرة.

كان طيراً غريباً، في أشكال شتى. شخص يستطيع أيضاً أن يفكّك مشاعره مثل أجهزة ساعة سويسرية، ليفحصها.

إن الأحوال السيئة مادة خصبة بالنسبة للفنان كما هي الأحوال الجيدة، بل، ربما كانت أكثر بكثير في بعض الأحيان. وجميع التجارب مثمرة بالنسبة له، ويمكن أن يحوّلها لصالحه. كان كارل من ذلك النوع من الفنانين الذين يخشون استهلاك مخزونهم، ويعمل على توسيع العالم، وبدلاً من أن يعمل على تعميق تجربته، كان يفضّل أن يحمي ما لديه. وكان يفعل ذلك بتحويل تدفقه الطبيعي إلى قطرات هزيلة رقيقة.

تزوّدنا الحياة باستمرار بأموال جديدة، بمصادر جديدة، حتّى عندما نصبح معاقين لا نقوى على الحركة. في دفتر حسابات الحياة لا يوجد شيء يدعى أصولاً مجمدة.

ما أريد أن أصل إليه هو أن كارل، وهو شيء لا يعرفه هو، يخادع نفسه. فقد

كان يسعى دائماً لأن يتراجع، لا لأن يمضي قدماً. لذلك، عندما كان يتفجر وينطلق، سواء في الحياة أو بالكتابة، كانت مغامراته تتخذ نوعاً من الهلوسة. فالأشياء التي يخاف أن يختبرها، أو يعبّر عنها، هي الأشياء ذاتها التي كان يضطر للتعامل معها، في اللحظة غير المناسبة، أي عندما لا يكون مستعداً. لذلك، ولدت جرأته من اليأس. كان يتصرّف أحياناً مثل جرذ ضُيِّق الخناق عليه، حتى في عمله. ويتساءل الناس من أين يستمد شجاعته، أو هذا الابتكار عندما يفعل أو يقول بعض الأشياء. لكنهم نسوا أنه كان يصل دائماً إلى النقطة التي ينتحر فيها إذا تجاوزها أيّ شخص عادي. أما بالنسبة لكارل، فلم يكن الانتحار حلاً. فإذا استطاع أن يموت وكُتب عن موته، فسيكون ذلك جيداً. وقد قال ذات مرة إنه لا يستطيع أن يتخيّل نفسه بأنه سيموت أبداً، لأن ذلك سيمنع وقوع كارثة عالمية. ولم يقل ذلك بروح رجل مفعم بحيوية شديدة، بل قالها كشخص يرفض أن يهدر طاقته، شخص لم يسمح مطلقاً للساعة أن تتوقف.

عندما أتذكر تلك الفترة، عندما كنا نعيش معاً في كليشي، فإنها تبدو لي وكأننا كنا نعيش في الجنة. إذ لم تكن هناك من مشاكل سوى مشكلة حقيقية واحدة، وهي الطعام. أما جميع الأمور الأخرى فكانت من ضرب الخيال. وكنت أقول له ذلك بين الحين والآخر، عندما كان يتذمر من أنه عبد. وكان يقول إنني متفائل إلى درجة لا يمكن شفائي منها. لكنه لم يكن التفاؤل، بل إدراك عميق بأنه بالرغم من أن العالم منهمك في حفر قبره بنفسه، فإنه لا تزال هناك فسحة من الوقت لكي يتمتع المرء بالحياة، وأن يكون مبتهجاً، خالي البال، سواء عمل أم لم يعمل.

دامت هذه الفترة سنة كاملة، كتبت خلالها رواية «الربيع الأسود»، إذ كنت أركب الدرّاجة العادية وأذرع ضفاف السين جيئة وذهاباً، وأسافر إلى جنوب فرنسا وإلى الريف في شاتو، وأخيراً ذهبت في نزهة مجنونة مع كارل إلى لوكسمبورغ.

في تلك الفترة، كان الفرج يرفرف في الهواء. إذ كانت الفتيات الإنكليزيات يملأن كازينو باريس؛ ويتناولن طعامهن في مطعم يقدم وجبات بسعر موحد بالقرب من ساحة بلانش. وكنا قد صادقنا المجموعة كلها، ثم وقع اختيارنا أخيراً على فتاة اسكتلندية رائعة الجمال، كانت صديقتها من سيلان من أصل أوروبي ـ آسيوي. وفي نهاية الأمر، نقلت الحسناء الاسكتلندية تلك جرعة جميلة من السيلان إلى كارل، الذي سبق وأصيبت به من عشيقها الزنجي في حانة ميلودي. لكن هذا استطراد لقصتي. فقد كانت هناك أيضا الفتاة التي تستلم القبعات والمعاطف في مرقص صغير في شارع فونتين، الذي كنا نرتاده عندما لم يكن كارل يعمل في الليل. كانت فتاة شبقة، مرحة جداً، وشديدة التواضع في طلباتها. وقد عرفتنا على سرب من الفتيات اللاتي كن يتسكّعن في الحانة، واللاتي عندما لم يكن يجدن أفضل منا، كنّ يغنين لنا أغنية في آخر الأمسية. وكانت إحداهن تصرّ دائماً على أن تأخذنا كلينا معها إلى البيت، فقد قالت إن ذلك يثيرها إلى درجة كبيرة. ثم كانت هناك الفتاة في المتجر، التي هجرها زوجها الأمريكي، والتي كانت تحب أن نأخذها إلى السينما ثم إلى السرير، حيث كانت تستلقي وتظل مستيقظة طوال الليل وهي ترطن بإنكليزيتها الركيكة. ولم يكن يهمهما مع أيّ منا تنام، لأننا كلانا نتكلم اللغة الإنكليزية. وأخيراً كانت هناك جين التي هجرها صديقي فيلمور. فقد كانت جين تأتي في ساعات غريبة من النهار أو الليل، وكانت تحضر معها دائماً قناني من النبيذ الأبيض التي كانت تشربها مثل سمكة لتعزي نفسها. كانت تفعل كلّ شيء لنا ما عدا النوم معنا. وكانت من ذلك النوع الهستيري الذي يتأرجح بين مزاج المرح الشديد والكآبة السوداء المفرطة. وعندما كانت تشرب، كانت تصبح فاسقة وشديدة الصخب. وكان بإمكانك أن تنزع عنها ثيابها، وتداعب فرجها، وتفرك حلمتيها، بل وحتى يمكنك أن تلعقها إذا أردت ذلك، لكن ما إن يقترب قضيبك المنتصب من فرجها حتى تتملص منك وتهرب. ففي لحظة تعضّك

بشهوانية متقدة، وتمسّد قضيبك بيديها القويتين الفلاحيتين، وفي اللحظة التالية تجهش بالبكاء وتدفعك بقدميها أو تبدأ بضربك بقبضتيها بشكل أعمى. وعندما تغادر البيت، يكون قد أصبح في حالة شديدة من الفوضى. وفي بعض الأحيان، وفي نوبات غضبها الشديد والمفاجئ، كانت تخرج من البيت نصف عارية، لتعود في الحال بعد لحظات، خجولة، حيية، مثل قطة صغيرة وادعة وتعتذر. في مثل تلك اللحظات، كان بوسعنا إن أردنا، مضاجعتها بحرارة، لكننا لم نفعل لها ذلك أبداً. «يمكنك أن تنالها»، كنت أسمع كارل يقول، «لم أعد أتحمل هذه الكلبة، إنها مجنونة». وكانت تنتابني المشاعر ذاتها تجاهها. وبدافع الصداقة، كنت أضاجعها مضاجعة جافة وهي مستندة إلى أنابيب التدفئة، وكنت أملؤها بالكونياك وأرسلها. كانت تبدو ممتنة للغاية، في تلك اللحظات، لهذا اللطف الذي نبديه لها. تماماً مثل طفلة.

وكانت هناك فتاة أخرى، كنا قد التقينا بها لاحقاً عن طريق جين، مخلوقة تبدو في غاية البراءة، لكنها خطيرة كالأفعى. كانت ترتدي ثيابها بطريقة غريبة، على نحو مضحك، وقد أضيف، بسبب تعلقها المرضي ببوكاهونتاس. كانت باريسية وعشيقة شاعر سريالي مشهور، وهو أمر كنا نجهله آنذاك.

بعد مضي فترة قصيرة على تعارفنا، التقينا بها ذات ليلة وهي تسير وحدها بالقرب من القلعة. كان شيئاً غريباً أن يفعل أحدهم ذلك في تلك الساعة من الليل ولا يساورك شيء من الشك. بادلتنا التحية وكأنها كانت في غيبوبة. كان يبدو أنها تذكرت وجهينا لكن من الواضح أنها نسيت أين ومتى التقينا. ولم يبدُ أنها كانت مهتمة في إنعاش ذاكرتها. وقبلت رفقتنا لها كما كانت ستقبل رفقة أي شخص آخر يمكن أن تصادفه. ولم تبدِ أي محاولة لفتح حديث. فقد كان كلامها أشبه بمناجاة كنا قد قطعناها عليها. وأخذ كارل، الذي كان بارعاً في هذه الأشياء، يغذّيها بطريقته الفصامية. وشيئاً فشيئاً، أعدناها إلى البيت وصعدنا بها إلى غرفتينا، وكأنها كانت تمشي في نومها. ولم تسألنا إلى أين

سنذهب، وماذا سنفعل. دخلت إلى الشقة، وجلست على الأريكة كما لو كانت في بيتها. طلبت قليلاً من الشاي وسندويشة، بنفس نبرة الصوت التي يمكن أن تخاطب فيها «الغرسون» في المقهى. وبنفس نبرة الصوت سألتنا كم سندفع لها لقاء مكوثها معنا. وبطريقتها التأكيدية أضافت أنها بحاجة إلى مائتي فرنك لتتمكن من تسديد إيجارها الذي يجب أن تدفعه يوم غد. وقالت إن مبلغ المائتي فرنك قد يكون كبيراً، لكن هذا ما كانت بحاجة إليه. كانت تتكلم مثل شخص يمعن النظر في الأشياء المتوفرة لديه. «الآن لنر، إننا نحتاج إلى البيض والزبدة، وإلى قليل من الخبز، وربما إلى قليل من المربى». بهذا الشكل. «إذا كنتما تريدان أن أمصكما، أو إذا كنتما تريدان المضاجعة بطريقة الانحناء من الخلف، كما تحبان، فالأمر سيان عندي»، قالت، وهي ترشف الشاي مثل دوقة في سوق خيري. وتابعت كلامها: «لا يزال ثدياي صلبين وجذابين»، وراحت تخلع بلوزتها وأبدت حفنة من صدرها، وتابعت كلامها «أعرف رجالاً على استعداد لأن يدفعوا لي ألف فرنك ليناموا معي، لكنني لا أكترث بالجري وراءهم. يجب أن أحصل على مائتي فرنك بالتمام والكمال». وتوقفت برهة لتلقي نظرة على كتاب ملقى على المنضدة عند مرفقها، ثم واصلت كلامها بذات الصوت الذي يخلو من أي نبرة: «لديّ بعض القصائد أيضاً، سأريكما إياها لاحقاً. قد تكون أفضل من هذا»، وأشارت إلى المجلد الذي وقعت عيناها عليه للتو.

في تلك اللحظة، بدأ كارل الذي كان واقفاً عند المدخل يحدثني بأسلوب إشارات الصم والبكم، ليقول لي إنها مجنونة. وفجأة رفعت الفتاة التي كانت تفتّش في حقيبتها لتخرج قصائدها، رأسها، وعندما رأت تعابير الإحراج على وجه كارل، قالت بهدوء وبجدية بأنه معتوه. ثم سألت بذات الطريقة، «هل يوجد بيديه في الحمّام؟» وأضافت، «لديّ قصيدة سأقرؤها عليكما بعد قليل؛ إنها تتحدث عن حلم رأيته ليلة البارحة». في اللحظة التي قالت فيها ذلك،

نهضت وبدأت تخلع بلوزتها وتنورتها ببطء. ثم قالت وهي تسوّي شعرها: «قل لصديقك أن يهيئ نفسه، سأنام معه أولاً».

هنا أجفل كارل. فقد بدأ يزداد خوفه منها، وفي الوقت نفسه، أخذ يرتعش من ضحكة مكتومة. ثم قال: «انتظري لحظة، اشربي قليلاً من النبيذ قبل أن تغتسلي، فهو سيفيدك كثيراً»، وبسرعة أخرج قنينة وصبّ لها كأساً. جرعتها كما لو كانت تروي ظمأها بكوب من الماء. ثم قالت له «انزع لي حذائي وجواربي»، بعد أن أسندت ظهرها إلى الحائط، ومدت له كأسها ليزيدها امتلاء، وقالت *"Ce vin est une saloperie"* *(هذا النبيذ كريه)*، ثم أضافت بنبرتها الرتيبة، «لكنني معتادة عليه. أظن أنه يوجد معك مئتا فرنك؟ يجب أن أحصل على هذا المبلغ بالتمام والكمال، لا مائة وخمسة وسبعون أو مائة وثمانون. أعطني يدك...» أمسكت يد كارل التي كانت تعبث برباط جوربها، ووضعتها على فرجها. «هناك حمقى عرضوا أن يدفعوا لي خمسة آلاف فرنك حتى يلمسوا هذا. إن الرجال أغبياء. لقد تركتك تلمسه بدون مقابل. هيا، صبّ لي كأساً أخرى. إن طعمه يصبح أقل بشاعة عندما تكثر من شربه. كم الساعة الآن؟»

ما إن دخلت إلى الحمّام وأغلقت على نفسها الباب، حتى أفلتت أعصاب كارل، فأخذ يضحك كالمجنون. كان خائفاً، وقال: «لن أفعلها، فقد تقضم قضيبي. هيا لنخرجها من هنا. سأعطيها خمسين فرنكاً وأضعها في تاكسي».

قلت له: «لا أظن أنها ستدعك تفعل ذلك»، مستمتعاً بارتباكه، «إنها تريد أن تعقد صفقة. بالإضافة إلى ذلك، إذا كانت حقاً بلهاء، فإنها قد تنسى موضوع النقود».

«يا لها من فكرة يا جوي»، صاح بحماسة، «لم تخطر ببالي هذه الفكرة. لديك عقل إجرامي. لكن اسمع، لن تتركني هناك وحدي معها؟

يمكنك أن تراقبنا فهي لا تعبأ بذلك. إنها مستعدة لمضاجعة كلب، إذا طلبنا منها ذلك. إنها تمشي في نومها».

ارتديت بيجامتي واندسست في السرير. مكثت فترة طويلة في الحمّام. بدأنا نشعر بالقلق.

قلت له: «من الأفضل أن تذهب وترى ماذا في الأمر».

فقال: «اذهب أنت. إني أخاف منها».

نهضت ورحت أقرع باب الحمّام.

«ادخل»، قالت، بذات الصوت البليد الذي يخلو من أي نبرة.

فتحت الباب ووجدتها عارية تماماً، مولية ظهرها لي. كانت تكتب قصيدة على الحائط بأحمر الشفاه.

عدت وناديت كارل. قلت: «لا بد أنها فقدت صوابها. إنها تلطّخ الحيطان بكتابة قصائدها عليها».

وبينما كان كارل يقرأ قصائدها بصوت مرتفع، خطرت لي فكرة ذكية حقاً. إنها تريد مائتي فرنك. جيد. لم أكن أملك هذا المبلغ، لكنني كنت أشكّ بأن كارل يملكه، فقد قبض راتبه البارحة. كنت أعرف أنني إذا بحثت في المجلد المكتوب عليه «فاوست» في غرفته، فسأجد أوراقاً من فئة المائتين أو الثلاثة مئة فرنك مسطحة وممسدة بين صفحاته. لم يكن كارل يعرف أنني كنت قد اكتشفت مخبأه السري. فقد اكتشفته ذات يوم بالصدفة عندما كنت أبحث عن قاموس. وعرفت حينها أنه يخبئ باستمرار مبلغاً صغيراً من المال في مجلد «فاوست» هذا، لأنني عدت مرات عدّة بعد ذلك لأتأكد من هذه الحقيقة. تركته يتضور جوعاً معي لمدة يومين ذات مرة، مع أنني كنت أعرف طوال الوقت أن النقود قابعة هناك. كان الفضول يدفعني لرؤية إلى متى سيستمر في خداعي.

بدأ عقلي يعمل بسرعة الآن عليَّ أن أقودهما كلاهما إلى غرفتي، وأُخرج النقود من مخبئها، وأعطيها لها، وعندما تتوجه إلى الحمّام مرة أخرى، سأستعيد النقود من حقيبتها، وأعيدها إلى كتاب فاوست لغوته.

سأدع كارل يعطيها الفرنكات الخمسين التي كان يتحدّث عنها، والتي ستدفعها كأجرة للتاكسي. ولن تبحث عن المائتي فرنك حتى الصباح؛ إذا كانت مجنونة حقاً فإنها لن تفتقد النقود، وإذا لم تكن مجنونة، فإنها ستقول لنفسها إنها ربما أضاعت النقود في التاكسي. وفي جميع الأحوال، فإنها ستغادر البيت كما دخلته في غيبوبة وهذيان، ولن تتوقّف لتلاحظ العنوان في طريق خروجها. كنت واثقاً من ذلك.

نجحت الخطة على نحو يثير الإعجاب، باستثناء أننا اضطررنا لمضاجعتها قبل أن ندفعها خارج البيت. حدث كلّ شيء بشكل غير متوقع. ولدهشة كارل، أعطيتها المائتي فرنك، وأقنعته بأن يدفع لها خمسين فرنكاً أجرة التاكسي. فقد كانت مشغولة في تلك اللحظة بكتابة قصيدة أخرى بقلم رصاص على قصاصة من الورق كانت قد مزّقتها من كتاب. كنت جالساً على الأريكة وكانت تقف أمامي عارية تماماً، مؤخرتها تحدّق في وجهي. أردت أن أرى إن كانت ستواصل كتابتها إذا وضعت إصبعاً في شقّها. فعلت ذلك برقة شديدة، كما لو كنت استكشف بتلات وردة مرهفة. ظلت تخربش على ورقتها من دون أدنى همهمة بالموافقة أو بالرفض، بل باعدت بين ساقيها قليلاً لتمكنني من نفسها بارتياح أكثر. وفي الحال انتعظت، واشتد انتصابي. نهضت ودفعت قضيبي فيها. انحنت إلى الأمام على الطاولة، وقلم الرصاص لا يزال في يدها. «أحضرها إلى هنا الآن»، قال كارل الذي كان في السرير يتلوّى مثل سمكة الأنكليس. أدرتها، وجعلتها تسير إلى الأمام، ورفعتها من قدميها، وجررتها إلى السرير. انقض عليها كارل على الفور، وراح ينخر مثل خنزير بري. تركته يستمتع حتى آخر لحظة، ثم نلتها ثانية من الوراء. وعندما انتهينا، طلبت قليلاً من النبيذ، وبينما كنت أملأ لها الكأس راحت تضحك. كانت ضحكة غريبة، لم أسمع مثيلاً لها من قبل. وبغتة توقّفت، وطلبت ورقة وقلم رصاص، ثم دفتراً لكي تسند الورقة عليه. اعتدلت في جلستها، ووضعت قدميها على حافة

السرير، وبدأت تكتب قصيدة أخرى. وبعد أن كتبت سطرين أو ثلاثة، سألت عن مسدسها.

«مسدس؟» صاح كارل، وقفز خارج السرير مثل أرنب. «أيّ مسدّس؟»

«المسدس الموجود في حقيبتي»، أجابت بهدوء، «أشعر بالرغبة الآن في أن أطلق النار على أحدكما. فقد قضيتما وقتاً رائعاً لقاء المائتي فرنك، والآن جاء دوري». ما إن قالت ذلك، حتى قفزت إلى حقيبتها. انقضضنا عليها وألقينا بها أرضاً. راحت تركل وتعض وتخدش بكلّ ما أوتيت من قوة.

«انظر يوجد مسدس في الحقيبة»، قال كارل، ممسكاً إياها بقوة. وثبت واقفاً، وأمسكت الحقيبة، لم أر فيها أي مسدس؛ وفي الوقت نفسه، انتزعت ورقتي العملة وخبأتهما تحت ثقّالة الورق على الطاولة.

«صبّ قليلاً من الماء عليها، بسرعة»، قال كارل، «أظن أن نوبة ستأتيها».

اندفعت إلى المغسلة، وملأت إبريقاً من الماء وألقيته عليها. لهثت، وتلوّت قليلاً، مثل سمكة خارجة من الماء، انتصبت في جلستها، وبابتسامة غريبة، قالت: *"Ca y est, c'est bien assez . . . laissez-moi sortir."* *(هذا يكفي... اتركاني أخرج)*.

حسناً، قلت في نفسي، لقد تخلصنا منها أخيراً. ثم قلت لكارل: «راقبها جيداً، سأضب أغراضها. يجب أن نلبسها ثيابها ونضعها في التاكسي».

جفّفناها وألبسناها ثيابها بأفضل ما أمكننا. انتابني قلق بأن تثير مشكلة أخرى قبل أن نتمكن من إخراجها من البيت. وماذا لو بدأت تصرخ في الشارع، لا لسبب معين؟

ارتدينا ثيابنا بسرعة، وأعيننا عليها مثل عيني صقر. وما إن تهيأنا للخروج حتى تذكرت قصاصة الورق التي تركتها على الطاولة ـ القصيدة غير المنتهية ـ وعندما راحت تتلمس الطاولة بحثاً عنها وقعت عيناها على ورقتي العملة المدسوستين تحت ثقّالة الورق.

«نقودي»، صاحت.

«لا تكوني سخيفة»، قلت بهدوء، ممسكاً إياها من ذراعها، وقلت: «أتظنين أننا نسرقك؟ نقودك في حقيبتك».

ألقت عليَّ نظرة سريعة ثاقبة، ثم أطرقت عينيها، وقالت: «أرجوك اعذرني، إني شديدة التوتر». فقال كارل: «لقد قلتَها بنفسك»، وأخذ يدفعها نحو الباب. «كان تصرفاً ذكياً منك يا جوي»، قال بالإنكليزية ونحن نهبط الدرج.

«أين تقيمين؟» سألها كارل، عندما أوقفنا سيارة أجرة.

فأجابت، «لا يوجد لدي مكان أذهب إليه. إني متعبة. اطلب منه أن يوصلني إلى فندق، أيّ فندق».

بدا أن كارل قد تأثر وسألها: «هل تريدين أن نذهب معك؟»

فقالت: «لا، إني بحاجة إلى النوم».

قلت لها «هيا تعالي»، ودفعت كارل جانباً وقلت له: «ستكون بخير».

صفقت باب السيارة ولوّحت لها ليلة سعيدة. ظل كارل واقفاً مذهولاً وهو يشيّع بعينيه سيارة الأجرة التي أخذت تبتعد.

«ما خطبك؟ لا أظن أنك قلق عليها. إذا كانت مجنونة فلن تكون بحاجة للنقود، ولا للفندق أيضاً».

«أعرف، لكن مع ذلك... اسمع يا جوي، أنت ابن قحبة فظ الفؤاد... والنقود! يا إلهي، لقد ضاجعناها بشكل رائع».

قلت «نعم، كنا محظوظين أنني كنت أعرف مكان النقود».

فقال: «أتقصد أن النقود كانت نقودي؟» وأدرك بغتة ما أقصده.

«نعم يا جوي، الأنثى الأبدية تجمعنا دائماً. قصيدة عظيمة، فاوست».

وتوجه إلى الحائط، واتكأ عليه، ثم انطلق في ضحكة هستيرية. وقال: «كنت أظن أنني الألمعي الوحيد، لكني أجد نفسي أمامك مجرد مبتدئ.

اسمع، سننفق هذه النقود غداً. سنتناول طعاماً جيداً في أحد المطاعم. سآخذك إلى مطعم حقيقي للتغيير».

قلت: «بالمناسبة، هل كانت قصيدتها جيدة؟ لم تتح لي الفرصة لقراءتها جيداً. أقصد أبيات الشعر التي كتبتها في الحمّام».

فقال: «كان هناك سطر واحد جيد»، أما الباقي فهي «جنونية» (lunatical).

«lunatical؟ لا توجد هكذا كلمة باللغة الإنكليزية».

«حسناً، هكذا هي. فكلمة مجنون لن تعبّر عنها. يجب أن تسكّ كلمة جديدة لها.

lunatical. أعجبتني هذه الكلمة. سأستخدمها... والآن سأقول لك شيئاً يا جوي. هل تتذكّر المسدس؟»

«أيّ مسدّس؟ لم يكن هناك مسدس».

«بل كان هناك مسدس»، أجاب، وابتسم لي ابتسامة غريبة، وقال: «لقد خبأته في سلة الخبز».

«إذاً، لقد فتشت حقيبتها أولاً، أليس كذلك؟»

«كنت أبحث عن قليل من الفراطة»، قال، مطرقاً برأسه، وكأنه يشعر بالخجل مما فعله.

«لا أصدق ما تقوله»، قلت، «لا بدّ أن هناك سبباً آخر».

«إنك ذكي يا جوي»، ردّ مرحاً، «لكنك تنسى شيئاً أو شيئين في بعض الأحيان. هل تتذكّر عندما جلست القرفصاء لكي تبوّل في أعلى السور؟ أعطتني حقيبتها لأحملها لها، وشعرت بشيء صلب في داخلها، شيء يشبه المسدس. لم أقل شيئاً آنذاك لأنني لم أشأ أن أخيفك. لكنها عندما وافقت على أن تأتي معنا إلى البيت، خفت. عندما دخلت إلى الحمّام فتحت الحقيبة ووجدت المسدس. كان معبأً وجاهزاً للإطلاق. ها هي الرصاصات، إذا كنت لا تصدقني...».

نظرت إليه بذهول تام. سرت رعشة باردة إلى أعلى وأسفل عمودي الفقري.

«لا بد أنها مجنونة»، وأطلقت تنهيدة ارتياح.

«لا»، قال كارل، «إنها ليست مجنونة. كانت تتلاعب بنا. ولم تكن قصائدها مجنونة ـ بل جنونية. ربما كانت منومة مغناطيسياً. ربما نوّمها، ووضع المسدس في يدها، وطلب منها أن تذهب وتحضر له مائتي فرنك».

«هذا جنون حقاً!» صحت.

لم يجب. سار وحيداً مطرق الرأس، وظل صامتاً بضع دقائق.

قال بعد أن رفع رأسه ونظر إلى الأعلى: «إن ما يحيّرني هو ما الشيء الذي جعلها تنسى المسدس بهذه السرعة؟ ولماذا لم تنظر في حقيبتها لتتأكد من وجود النقود عندما كذبت عليها؟ أظن أنها كانت تعرف أن المسدس قد ذهب، والنقود أيضاً. أظن أنها خافت منّا. وقد بدأت الآن أخاف ثانية أنا نفسي. أظن أنه يجب علينا أن نذهب ونقيم في فندق هذه الليلة. سأذهب غداً في رحلة قصيرة إلى مكان ما... سأبتعد بضعة أيام».

استدرنا من دون أن ننبس بكلمة أخرى وبدأنا نغذّ السير باتجاه مونمارتر. أصابنا الذعر...

لقد عجلّت هذه الحادثة الصغيرة من هروبنا إلى لوكسمبورغ. لكنني استبقت قصتي بعدة أشهر. دعوني أعود للحديث عن عيشتنا نحن الثلاثة.

سرعان ما أصبحت كوليت، المشرّدة الضالة، مزيجاً من سندريلا ومحظية وطباخة. وكان علينا أن نعلّمها كلّ شيء، بما في ذلك فنّ تنظيف أسنانها. كانت في سن حرجة، وكانت دائماً تُسقط أشياء، تتعثّر، تتيه، وما إلى ذلك. وكانت بين الحين والآخر، تختفي مدة يومين بطولهما. ماذا كانت تفعل في هذه الفترات، كان من المستحيل معرفة ذلك. وكلما ازداد سؤالنا لها، ازدادت فراغاً وبلادة. وفي بعض الأحيان، كانت تخرج وتتمشى في الصباح وتعود عند منتصف الليل، حاملة معها قطّة ضالّة أو جرواً شارداً عثرت عليهما في الشارع. وذات يوم تبعناها طوال فترة بعد الظهر، لنرى كيف تمضي وقتها. كان ذلك أشبه

بالسير وراء مشّاء في نومه. وكان كلّ ما فعلته أنها كانت تنتقل من شارع إلى شارع، على غير هدى، بتوانٍ وتكاسل، تتوقّف وتتطلع في واجهات المحال، تستريح على مقعد، تطعم الطيور، تشتري لنفسها مصاصة، وتقف دقائق لا نهاية لها وكأنها في غيبوبة، ثم تنطلق ثانية بطريقتها المعهودة لا تلوي على شيء. تبعناها طوال خمس ساعات لم نكتشف خلالها شيئاً إلا أنه توجد بين أيدينا طفلة.

تأثر كارل كثيراً من بساطتها وسذاجتها. وكان اندفاعها الجنسي القوي قد أرهقه أيضاً. وبدأ يتملكه شيء من الغضب لأنها كانت تستحوذ على أوقات فراغه كلها. وكان قد تخلّى عن فكرة الكتابة، أولاً، لأنه كان قد رهن الآلة الكاتبة، وثانياً لأنه لم تعد تتوفر لنفسه ولا دقيقة واحدة. ولم تكن كوليت المسكينة تعرف ماذا ستفعل بنفسها. فقد تستلقي في السرير طوال فترة بعد الظهر، تنكح دماغها، وتتهيأ للمزيد عندما يعود كارل من عمله. فقد كان كارل يعود إلى البيت في الساعة الثالثة صباحاً تقريباً. ولم يكن يغادر السرير في غالب الأحيان حتى السابعة مساء، عندما يحين موعد الطعام ثم يخرج مسرعاً إلى العمل. وبعد أن حاصرته، أخذ يتوسل لي بأن أنالها، وكان يقول: لقد جفت عروقي. لقد وضعت هذه الحمقاء دماغها كلّه في فرجها».

لكن كوليت لم تكن تستهويني. كنت أعشق نيس التي كانت لا تزال تتردد على مقهى ويبلير. كنا قد أصبحنا صديقين حميمين. لم أسألها عن النقود. صحيح، أنني كنت أجلب لها بعض الهدايا الصغيرة، إلا أن ذلك كان شيئاً مختلفاً بطريقة ما. وكنت بين الحين والآخر أقنعها بأن تأخذ إجازة بعد الظهر. وكنا نذهب إلى أماكن صغيرة على ضفاف السين، أو كنا نستقل القطار إلى غابة قريبة حيث كنا نتمدد فوق العشب ونمارس الجنس حسب ما يشتهي قلبانا. لم أكن أسألها عن ماضيها. بل كان المستقبل هو الذي نتحدث عنه دائماً. على الأقل كانت هي تفعل ذلك. ومثل نساء فرنسيات كثيرات، كانت

تحلم في أن تجد بيتاً صغيراً في الريف، يُفضل أن يكون في الجنوب. ولم تكن تأبه كثيراً لأن تعيش في باريس، التي كانت تقول إنها مدينة غير صحّية.

«وماذا ستفعلين لقضاء الوقت؟» سألتها ذات مرة.

«ماذا سأفعل؟» كرّرت باندهاش، «لن أفعل شيئاً. سأعيش فقط».

يا لها من فكرة! يا لها من فكرة معقولة! حسدتها على رباطة جأشها، وتراخيها، وعدم مبالاتها. كنت أحثّها على التحدّث عن ذلك بالتفصيل، أقصد أنها لن تفعل شيئاً. كان شيئاً مثالياً أنني لم أغازلها على الإطلاق. فلكي أفعل ذلك يجب أن يكون لديّ إما عقل فارغ، أو عقل غني تماماً. وبدأت أؤمن أنه من الأفضل للمرء أن يكون ذا عقل فارغ.

إن مجرد مشاهدة نيس وهي تأكل يبعث على الإلهام. فقد كانت تستمتع بكلّ لقمة من طعامها الذي تختاره بعناية فائقة. ولا أقصد بعناية فائقة أنها كانت حريصة على احتساب السعرات الحرارية والفيتامينات. لا، بل كانت تحرص على اختيار الأشياء التي تحبّها، والتي توافق عليها، لأنها كانت تستمتع بها. فمن الممكن أن تطيل فترة تناولها وجبة طعامها إلى ما لا نهاية، وكانت روحها المرحة تزيد من تراخيها وتكاسلها باستمرار، فتزداد إغراء أكثر وأكثر، وتصبح روحها أكثر رقة، وأكثر حيوية وبهاء. وجبة طعام جيدة، حديث ممتع، ومضاجعة لذيذة، ما هو أفضل من كل هذه الأشياء لكي يمضي المرء يومه؟ إذ لم تكن هناك ديدان تنهش ضميرها، ولم تكن لديها هموم لا تستطيع أن تلقيها عن كاهلها. كانت تعوم مع المدّ، لا شيء أكثر من ذلك. لم تكن تريد أن تنجب أطفالاً، ولم تكن ترغب في أن تساهم في رفاهية المجتمع، ولم تكن ترغب في أن تترك علامة مميزة في هذا العالم خلال مسيرة حياتها. لكنها أينما ذهبت، كانت تجعل الحياة أسهل، وأكثر جاذبية، وأكثر عطراً، وهذا ليس بالشيء الهين. وفي كلّ مرّة كنت أتركها، كان يتملكني شعور بأنني أمضيت اليوم بشكل رائع. كنت أتمنى أن أمضي الحياة أيضاً بذات الطريقة الطبيعية السهلة.

وفي بعض الأحيان، كنت أتمنى لو أنني كنت أنثى، مثلها، لا يوجد لدي شيء أكثر من فرج جذّاب. يا له من شيء رائع أن يجعل المرء فرجه يعمل، ويستخدم عقله للمتعة! أن يعشق السعادة. أن يصبح عديم الفائدة بقدر ما بوسعه. أن يجعل ضميره سميكاً مثل جلد التمساح! وعندما يتقدم في العمر ويفقد جاذبيته، يشتري مضاجعة، إذا لزم الأمر، أو يشتري كلباً ويدرّبه ليجعله مفيداً. ويموت، عندما يحين الأوان، عارياً ووحيداً، بدون إحساس بالذنب، بدون أسف، بدون ندم...

هذا ما كنت أحلم به بعد أن أمضي يوماً مع نيس في الهواء الطلق.

يا لها من سعادة حقيقية أن أسرق مبلغاً كبيراً وأعطيه لها عندما تبدأ بخلع ثيابها. أو أن أرافقها في جزء من الطريق، حتى أورانج أو أفينيون. كانت تمضي شهراً أو شهرين كمتشرّدة، تستمتع بكسلها الدافئ. تتفانى في خدمتها، لكي تتمتع بمتعتها.

وفي الليالي التي لم أكن أتمكن من رؤيتها فيها ـ عندما يكون قد أخذها أحدهم ـ كنت أطوف في الشوارع وحدي، أتوقّف عند الحانات الصغيرة في الشوارع الفرعية، أو في الحانات تحت الأرض، حيث كانت فتيات أخريات يمارسن مهنتهن بطريقة غبية تخلو من المشاعر. وبدافع من السأم المطلق، كنت آخذ واحدة أحياناً، مع أنها كانت تترك في فمي طعم الرماد.

وفي معظم الأحيان، عندما أعود إلى البيت، كانت كوليت لا تزال تطوف في أرجائه مرتدية ذلك الرداء الياباني المضحك الذي اشتراه لها كارل من أحد البازارات. وبطريقة ما، بدا أننا لن نتمكن أبداً من أن نشتري لها بيجاما. كنت أجدها عادة على وشك أن تتناول قليلاً من الطعام. تحاول أن تبقى مستيقظة، تلك الطفلة المسكينة، لكي تستقبل كارل عندما يعود من عمله. كنت أجلس وأتناول الطعام معها. كنا نتحدث حديثاً عابراً غير مترابط. ولم تكن تقول شيئاً يستحق الاستماع إليه. لم تكن توجد لديها تطلّعات أو طموحات، ولا أحلام،

ولا رغبات. كانت مبتهجة كبقرة، مطيعة كجارية، جذّابة كدمية. لم تكن غبية، بل كانت مغفلة. مغفلة مثل الدابة. أما نيس فلم تكن غبية. نعم كانت كسولة. كسولة مثل خطيئة. وكان كلّ شيء تتحدث عنه نيس مثيراً، حتى عندما لم تكن تتحدث عن شيء، وهي موهبة أقدّرها أكثر بكثير من القدرة على التكلم بذكاء. في الحقيقة، كان حديثاً كهذا يبدو لي أنه حدث من المرتبة الأولى. يساهم في الحياة، بينما الحديث الآخر، الرطانة المهذبة المتأنقة، تستنزف قوة المرء، تجعل كلّ شيء عقيماً، معقماً بلا معنى. أما كوليت، كما كنت أقول، فلها عقل غبي مثل عجل. عندما تلمسها فإنك تشعر بلحم بارد، لا يثير فيك أي إلهام، مثل هلام. يمكنك أن تداعب ردفيها وهي تصبّ لك القهوة، لكن ذلك كان وكأنك تداعب مقبض الباب.

وكان تواضعها تواضع حيوان أكثر من كونه تواضع إنسان. فقد كانت تضع يدها على فرجها وكأنها تريد أن تخفي شيئاً قبيحاً، لا شيئاً هاماً وخطيراً. كانت تخفي فرجها وتترك ثدييها مكشوفين. وإذا جاءت إلى الحمّام ووجدتني أتبول، كانت تقف عند الباب وتحدثني وكأني لا أفعل شيئاً. لم تكن تثيرها رؤية رجل يتبوّل؛ بل كانت تنتابها الإثارة عندما تعتليها وتقذف فيها.

ذات ليلة، عندما وصلت إلى البيت في وقت متأخر بعض الشيء، اكتشفت أنني نسيت مفتاحي. قرعت الباب بقوة، لكن لم يكن هناك أي رد. خيّل إليّ أنها ربما قد خرجت في إحدى رحلاتها البريئة. لم يكن أمامي سوى أن أتمشى ببطء نحو مونمارتر وألتقي بكارل وهو عائد إلى البيت. وفي منتصف الطريق إلى ساحة كليشي تقريباً صادفته؛ قلت له إن كوليت ربما طارت من العشّ. عندما عدنا إلى البيت وجدنا الأضواء كلها منارة. لكن كوليت لم تكن هناك، ولم تكن قد أخذت أياً من أشيائها. كان يبدو أنها خرجت لتتمشى. في ذلك الصباح بالذات، قال كارل إنه سيتزوّجها عندما تبلغ سن الرشد. وضحكت كثيراً من ألاعيبهما، عندما كانت تتدلى من نافذة غرفة النوم، ويتدلى هو من

نافذة المطبخ، يصيحان بأعلى صوتيهما حتى يسمع الجيران جميعهم:
"Bonjour, Madame Oursel, comment ca va ce matin?"

(بونجور مدام أورسيل، كيف حالك هذا الصباح).

اعتراه شعور بالاكتئاب. كان واثقاً من أن الشرطة قد أتت وأخذتها. قال: «إنهم سيستدعونني قريباً، هذه هي النهاية».

قرّرنا أن نذهب ونمضي الليلة خارج البيت. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً بقليل. وكانت ساحة كليشي ميتة، ما عدا بضع حانات بقيت مفتوحة طوال الليل. كانت العاهرة ذات الساق الخشبية لا تزال تقف في مكانها قبالة قصر غاومو؛ كان لديها زبائنها القليلون المخلصون الذين كانوا يجعلونها تعمل. تناولنا وجبة طعام قرب ساحة بيغال في وسط مجموعة من العقبان الذين يأتون في وقت مبكّر من الصباح. ألقينا نظرة على المرقص الصغير الذي كانت تعمل فيه صديقتنا، الفتاة التي تأخذ المعاطف والقبعات، لكنهم كانوا على وشك إغلاق الحانة. صعدنا التلة في خط متعرج نحو كاتدرائية القلب الأقدس. عند أسفل الكاتدرائية ارتحنا قليلاً، ورحنا نحدّق في بحر الأضواء المتلألئة. في الليل، تصبح باريس مضخمة. إذ تخفف الأضواء من الأعلى من وحشيّة الشوارع وبشاعتها. وفي الليل، من مونمارتر، تبدو باريس ساحرة حقاً؛ إنها تقبع في جوف زبدية مثل أحجار كريمة تناثرت إلى قطع صغيرة هائلة.

وعند الفجر تصبح مونمارتر رائعة إلى حد لا يوصف، إذ يكسو الجدران البيضاء لون وردي ناضر. وتبرز الإعلانات الضخمة المطلية بألوان حمراء وزرقاء تتلألأ على الجدران الباهتة، بنضارة شهوانية. وعندما اقتربنا من التلّة، صادفنا مجموعة من الراهبات الشابات اللاتي كن يبدين نقيات طاهرات وعذراوات. كنّ مرتاحات، هادئات ومبجلات، إلى درجة أننا شعرنا بالخجل. وعلى مسافة أبعد قليلاً، صادفنا قطيعاً من الماعز يشق طريقه بصعوبة إلى أسفل المنحدر؛ وكان يسير وراءه معتوه، يعزف بين الحين والآخر بضعة ألحان غريبة

على الناي. كان الجوّ يكسوه هدوء مطلق، سلام مطلق. كان من الممكن أن يكون صباح يوم من أيام القرن الرابع عشر.

نمنا حتى مساء ذلك اليوم تقريباً. لم تكن هناك أي إشارة عن كوليت، ولم تأتِ الشرطة لزيارتنا. لكن في صباح اليوم التالي، وقبيل الظهر، سمعنا صوت طرقات شديدة على الباب تنذر بالسوء. كنت في غرفتي أطبع على الآلة الكاتبة. فتح كارل الباب. سمعت صوت كوليت، ثم صوت رجل. وسرعان ما سمعت صوت امرأة أيضاً. واصلت عملي. رحت أكتب كل ما يخطر ببالي لكي أحافظ على الإدعاء بأنني مشغول.

وسرعان ما ظهر كارل، وقد ارتسمت على وجهه أمارات الذهول. وسألني: «هل تركت ساعتها هنا؟ إنهم يبحثون عن الساعة».

«من هم؟» سألت.

«أمّها هنا... لا أعرف من هو الرجل. ربما كان مخبراً. تعال دقيقة، سأعرفك عليهم».

كانت الأمّ مخلوقة جميلة في متوسط العمر، أنيقة، وتكاد تبدو في مظهر متميز وأنيق. وبدا أن الرجل الذي يرتدي ثياباً رزينة محامٍ. كان الجميع يتحدثون بصوت خفيض، وكأن أحداً قد مات للتو.

أحسست على الفور بأن وجودي لم يكن بلا تأثير.

«هل أنت كاتب أيضاً؟» قال الرجل.

أجبت بتهذيب بأنني كاتب.

سألني: «هل تكتب باللغة الفرنسية؟».

وهنا أجبت جواباً لبقاً جداً، ينم عن إطراء، متحسراً على أنه بالرغم من أنني أعيش في فرنسا منذ خمس أو ستّ سنوات، ومطلّع بشكل جيد على الأدب الفرنسي، بل حتى أنني أترجم في بعض الأحيان، فقد حالت بعض عيوبي الفطرية دون أن أتقن لغته الجميلة لكي أتمكن من التعبير عن نفسي بوضوح شديد كما أريد.

استدعيت وجمعت كلّ ما أملك من مصادر حتى أصيغ جملة الإدعاء هذه بعبارة بليغة وصحيحة. وبدا لي أنها أصابت الهدف مباشرة.

أما الأمّ، فقد أخذت تقرأ بإمعان عناوين الكتب المكدسة على الطاولة التي يعمل عليها كارل. وباندفاع، اختارت كتاباً وسحبته وأعطته إلى الرجل. كان المجلد الأخير لأعمال بروست المشهور. أبعد الرجل عينيه عن الكتاب وراح ينظر إلى كارل بعيون جديدة. كان في قسماته احترام عابر ينم عن حقد. وأوضح كارل الذي كان محرجاً بعض الشيء بأنه يكتب مقالة يظهر فيها العلاقة بين الغيبي والغامض عند بروست، وبخاصة مذهب هيرمس تريسميغيستوس، الذي كان مفتوناً به.

«توقف، توقف»، قال الرجل، رافعاً أحد حاجبيه بشكل ملحوظ، مثبتاً كلينا بنظرة حادّة، لكنها لم تكن نظرة إدانة تامة. «هل تتفضل وتتركنا وحدنا مع صديقك لبضع دقائق؟» قال، ملتفاً إليّ.

«بكل تأكيد»، قلت، وعدت إلى غرفتي، حيث عدت إلى الآلة الكاتبة أضرب عليها كيفما اتفق.

ظلوا جميعهم محشورين في غرفة كارل لمدة تقارب نصف ساعة، كما بدا لي. كنت قد كتبت حوالي ثماني أو عشر صفحات من الهذر التام الذي لم يكن بوسع أكثر السرياليين وحشية أن يعرف رأس ما كتبت من ذيله، عندما جاؤوا إلى غرفتي لتوديعي. ودّعت كوليت كما لو كانت فتاة يتيمة صغيرة كنا قد أنقذناها وها نحن نعيدها الآن بأمان إلى أبويها اللذين فقدتهما منذ فترة طويلة. سألت عما إذا كانوا قد وجدوا الساعة. قالوا إنهم لم يجدوها، لكنّهم يأملون في أن نجدها نحن. وقالوا إنها هدية صغيرة.

ما إن أُغلق الباب وراءهم، حتى هرع كارل إلى الغرفة وضمني بين ذراعيه، وقال: «جوي، أظن أنك أنقذت حياتي. أو ربما كان بروست. لقد أثرت إعجاب ذاك اللقيط ذا الوجه اللئيم. الأدب! هكذا هم الفرنسيون.

حتى رجال الشرطة يهتمون بالأدب هنا. ولكونك أمريكياً ـ كاتباً مشهوراً ـ فقد رفع ذلك من أسهمنا كثيراً. تعرف ماذا قال لي عندما تركت الغرفة؟ كان ولي أمر كوليت القانوني. بالمناسبة إنها تبلغ الخامسة عشرة من العمر، لكنها هربت من البيت من قبل. لكنه قال إن حكم ذلك السجن لمدة عشر سنوات، إذا طلبوا استدعائي إلى المحكمة. سألني إن كنت أعرف ذلك. قلت نعم. أظن أنه فوجئ لأنني لم أحاول أن أدافع عن نفسي. لكن ما فاجأه أكثر أنه اكتشف أننا كاتبان. إن الفرنسيين يكنّون احتراماً كبيراً للكتّاب، كما تعرف. فلا يمكن أن يكون الكاتب مجرماً عادياً. أظن أنه كان يتوقع أن يجد اثنين من أفراد العصابات. أو مبتزين. عندما رآك ضعف. سألني بعد ذلك ما نوع الكتب التي كتبتها، وعما إذا كان قد ترجم أيّ منها. قلت له إنك فيلسوف، وإنه من الصعب ترجمة أعمالك...»

«كان ذلك السطر الذي ذكرته عن هيرمس تريسميغيستوس رائعاً»، قلت، «كيف فكرت به؟»

«لم أفكر به»، قال كارل، «كنت ارتعد من الخوف، لذلك قلت أي شيء خطر ببالي. بالمناسبة، كان هناك شيء آخر أثار إعجابه وهو فاوست لأنه كان باللغة الألمانية. وكانت هناك بعض الكتب بالإنكليزية أيضاً، لورانس، بليك، شكسبير. كدت أسمعه يقول لنفسه: (لا يمكن أن يكون هذان الرجلان شريرين. كان من الممكن أن تقع الطفلة في أيدي أناس أسوأ بكثير)».

«لكن ماذا قالت الأمّ؟».

«الأمّ! هل تفحصتها جيداً؟ لم تكن جميلة فقط، بل كانت رائعة الجمال. جوي، ما إن وقعت عيناي عليها حتى وقعت في غرامها. لم تكد تقول كلمة واحدة طوال الوقت. في النهاية قالت لي: (مسيو، لن نقدم شكوى ضدك، بشرط أن تعدنا بأن لا تحاول أن ترى كوليت ثانية. هل هذا المفهوم؟) لم أكن أسمع ما قالته جيداً، ارتبكت. احمّر وجهي وتلعثمت مثل صبي صغير. لو أنها

قالت، (مسيو، يجب أن تذهب معنا إلى مركز الشرطة)، لقلت لها (نعم مدام، تحت أمرك). كنت سأقبّل يدها، لكن خيّل لي أنني قد أتجاوز حدودي. هل شممت العطر الذي تضعه؟ كان»... وذكر شيئاً مصحوباً برقم، وكأني يجب أن أنبهر بذلك. «إنك لا تعرف شيئاً عن العطور، نسيت. اسمع، النساء من الطبقة الراقية فقط هن اللاتي يستعملن عطوراً كهذه. قد تكون دوقة أو مركيزة. إني نادم لأني لم أختر الأمّ. بالمناسبة، هذا سيشكل نهاية جيدة لكتابي، أليس كذلك؟»

نهاية جيدة جداً، قلت في نفسي. في واقع الأمر، كان قد كتب القصّة بعد عدّة أشهر، وكانت إحدى أفضل الأشياء التي فعلها في حياته، وخصوصاً الفقرة التي يتحدث فيها عن بروست وفاوست. وكان طوال الفترة التي يكتب فيها يهذي بالأمّ. يبدو أنه نسي كوليت تماماً.

حسناً، لم تكد تنتهي هذه الحادثة حتى ظهرت الفتيات الإنكليزيات على الساحة، ثم الفتاة التي تعمل في البقالية المهووسة بتعلم اللغة الإنكليزية، ثم جين، ثم الفتاة المسؤولة عن القبعات، ثم الفتاة من الزقاق المسدود وراء مقهى ويبلير، من المصيدة، كما كنا ندعوه، لأن اجتياز ذلك الزقاق الصغير في الليل ونحن في طريقنا إلى البيت كان بمثابة محنة حقيقية.

ثم جاءت تلك المشّاءة في النوم بمسدّسها، التي بثت الخوف فينا لبضعة أيام.

في صباح أحد الأيام، بعد أن سهرنا طوال الليل وأجهزنا على النبيذ الجزائري، اقترح كارل أن نأخذ عطلة سريعة لبضعة أيام. كانت هناك خريطة كبيرة عن أوروبا معلّقة على جدار غرفتي كنا نتفحصها بحماسة شديدة لنرى إلى أي بقعة يمكننا أن نذهب بالنقود المحدودة المتوفرة لدينا. في البداية فكرنا بالذهاب إلى بروكسل، لكن بعد تفكير، تخلّينا عن الفكرة. فقد اتفقنا على أن البلجيكيين أناس لا يثيرون الاهتمام، وافقنا. وبالأجرة نفسها تقريباً يمكننا أن نذهب إلى لوكسمبورغ. كنا ثملين تماماً، وبدا لنا أن لوكسمبورغ المكان المناسب الذي يمكننا أن نذهب إليه

في الساعة السادسة صباحاً. لم نحزم أيّ حقيبة؛ كلّ ما كنا نحتاج إليه هو فراشي الأسنان التي نسيناها في زحمة اللحاق بالقطار.

بعد بضع ساعات اجتزنا الحدود، وصعدنا إلى القطار ذي المقاعد الخشبية غير المنجّدة الذي سيقلنا إلى ريف *opera bouffe* الذي كنت متلهفاً لرؤيته. وصلنا قبيل الظهر، نعسين ودائخين. تناولنا غداء ثقيلاً، وغسلناه بنبيذ الريف، وارتمينا على السرير. في حوالي الساعة السادسة أفقنا وخرجنا. كانت أرضاً مسالمة، وفيرة، طيّعة، تسمع في أرجائها أصوات الموسيقى الألمانية؛ وكنت ترى على وجوه السكّان ذلك النوع من الهناءة التي تراها عادة على وجوه الأبقار.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى صادفنا «سنو وايت»، أجمل فتاة في ملهى قريب من المحطة. كانت سنو وايت في حوالي الخامسة والثلاثين من عمرها، ذات شعر كتّاني طويل، وعينين زرقاوين حيويتين. لم يكن قد مضى على وجودها هناك أكثر من أسبوع، ومع ذلك فقد بدأت تشعر بالضجر. تناولنا كأسين معها، ورقصنا الفالس معها مرات عدة، وقدمنا لأعضاء الأوركسترا بعض المشروبات. كان كل ذلك بمبلغ زهيد، ثم دعوناها إلى العشاء. إذ يكلف عشاء جيد في فندق جيد سبعة أو ثمانية فرنكات للشخص الواحد. وبما أن سنو وايت سويسرية، فقد كانت حمقاء تماماً، أو طيبة القلب إلى درجة كبيرة، تجعلها لا تصمد أمام النقود. فقد كانت تدور في رأسها فكرة واحدة فقط وهي متى تعود إلى عملها في الوقت المحدد. كان قد حلّ الظلام عندما غادرنا المطعم. وقادتنا غريزتنا إلى أطراف البلدة، وسرعان ما وصلنا إلى جسر، حيث مددناها وأعطيناها اللازم. لقد تناولته كما تتناول شراب كوكتيل، ورجتنا أن نزورها في وقت لاحق من ذلك المساء؛ وقالت إنها ستحضر معها صديقة تظن أننا سنجدها جذابة. رافقناها إلى الملهى، ثم انطلقنا لاستكشاف أرجاء البلدة.

في أحد المقاهي الصغيرة، حيث كانت تجلس إمرأة عجوز تعزف على السنطور، طلبنا قليلاً من النبيذ. كان المقهى كئيباً بعض الشيء، وسرعان ما اعترانا الضجر. وما إن هممنا بالمغادرة، حتى جاء صاحب المقهى وقدم لنا بطاقته، وقال إنه يرجو أن نأتي ثانية. وبينما كان يتكلّم، أعطاني كارل البطاقة ولكزني بمرفقه. قرأتها. كان مكتوب عليها بالألمانية «لا يسمح بدخول اليهود إلى هذا المقهى». لو كان مكتوب عليها «مقهى خال من جبن لمبرغر ذي الرائحة اللاذعة»، لما شعرت بأنه أمر سخيف. ضحكنا في وجه الرجل. ثم سألته بالفرنسية إن كان يفهم اللغة الإنكليزية. فقال نعم. عندها قلت: «دعني أقول لك هذا ـ مع أنني لست يهودياً ـ فإنني أعتبرك أحمقاً. ألا يوجد لديك شيء تفكر فيه أفضل من هذا؟ إنك رجل يغط في سبات عميق...

إنك تتمرّغ في خرائك. *هل تفهم ذلك*؟» نظر إلينا مرتبكاً. ثم بدأ كارل يتكلم بلغة فرنسية كالتي يتحدث بها أفراد عصابات باريس. «اسمع، يا قطعة الجبن المنيوكة»، فأخذ الرجل يرفع صوته. «اخرس»، قال كارل مهدّداً، وأقدم على حركة وكأنه يريد أن يخنق العجوز الأحمق. «سأقول لك كلمتين فقط: إنك فرج نتن!» وهنا تملكته إحدى نوبات الضحك. أظن أنه تكوّن لديه انطباع بأننا مجنونان. تراجعنا ببطء، ونحن نضحك بشكل هستيري ونلوي قسمات وجهينا أمامه. لم يكن الأحمق سريع البديهة. كان مرتبكاً جداً، وكان كلّ ما استطاع أن يفعله أن يتهاوى على كرسي ويستريح.

بعد مسافة قصيرة من الشارع صادفنا شرطياً يبدو نعساً. توجه كارل إليه باحترام، ورفع قبعته، وقال له بلغة ألمانية لا يشوبها أي خطأ بأننا غادرنا مقهى جودينفرييس للتو حيث اندلع شجار، وحثّه على الإسراع لأن ـ وهنا خفض صوته ـ صاحب المقهى تملكته نوبة غضب ومن الممكن أن يقتل أحدهم. شكره الشرطي بطريقته الرسمية البطيئة وراح يتدحرج نحو المقهى. عند ناصية الشارع وجدنا سيارة أجرة؛ طلبنا من السائق أن يقلنا إلى فندق كبير كنا قد رأيناه في وقت سابق من المساء.

مكثنا في لوكسمبورغ ثلاثة أيام، أكلنا خلالها وشربنا كما نشتهي، واستمعنا إلى الأوركسترا الألمانية الرائعة، وشاهدنا حياة الناس المملّة الهادئة. الناس الذين لا يوجد لديهم سبب للوجود، بل غير الموجودين في الواقع، إلا كما توجد الأبقار أو الخراف. وعرّفتنا سنو وايت على صديقتها التي كانت من لوكسمبورغ وحمقاء حتى العظم. تحدّثنا عن صنع الجبن، وأعمال التطريز، والرقصات الريفية، وعن التنقيب عن الفحم، وعن التصدير والاستيراد، وعن العائلة المالكة، وعن الأمراض القليلة التي كانت تصيبهما بين الحين والآخر، وما إلى ذلك. وأمضينا يوماً كاملاً في وادي الرهبان، بفاتإينثال. كان يبدو أن ألف سنة من الهدوء تخيّم على هذا الوادي الخدر. كان أشبه بممر رسمه الله بخنصره، رسالة تذكّر الرجال بأنهم عندما يرتوون من عطشهم النهم للدماء، وعندما يملون ويتعبون من الصراعات، فإنهم سيجدون السلام والراحة هنا.

صدقاً، كان المكان جميلاً، يشبه عالماً مرتباً، مزدهراً، مطواعاً، والجميع يشعر بخفة الدم، واللطف، والتسامح. لكن مع ذلك، كانت هناك، لسبب ما، رائحة نتنة في المكان. رائحة الركود. طيبة السكّان، التي كانت سلبية، والتي أتلفت نسيجهم الأخلاقي.

كان كلّ ما يشغلهم هو أي وجه من الخبز مدهون بالزبدة. لم يكن باستطاعتهم أن يصنعوا الخبز، لكنّهم كانوا يستطيعون دهنه بالزبدة.

انتابني شعور تام بالغثيان. من الأفضل لي أن أموت مثل قملة في باريس على أن أعيش في هذه الأرض الوفيرة، قلت لنفسي.

«لنعد ونحصل على جرعة من السيلان»، قلت، موقظاً كارل من حالة السبات.

«ماذا؟ عم تتحدّث؟» غمغم.

«نعم»، قلت، «هيا لنخرج من هنا، إنه مكان نتن. إن لوكسمبورغ مثل بروكلين، فهي أكثر سحراً وأكثر سمّاً. لنعد إلى كليشي وننغمس في الملذات. أريد أن أتخلص من طعم هذا من فمي».

عند منتصف الليل تقريباً، وصلنا إلى باريس. هرعنا إلى مكتب الصحيفة حيث كان صديقنا الطيب، كينغ، مسؤولاً عن زاوية السباق في الجريدة. اقترضنا منه كمية من الفرنكات وخرجنا مسرعين.

كان مزاجي يدفعني لأن أذهب مع أول عاهرة أصادفها. «سآخذها، مع السيلان وكلّ شيء»، قلت لنفسي. «اللعنة، ومع ذلك فإن جرعة السيلان شيء جيد. أما فروج النساء في لوكسمبورغ فهي مليئة بالحليب الدسم».

لم يكن كارل يرغب في أن يصاب بالسيلان مرة أخرى. وقد أفضى لي بأنه بدأ يشعر بحكة في قضيبه. كان يحاول أن يعرف من نقل له المرض، إن كان سيلاناً، كما كان يشكّ.

«إن كنت قد أصبت به سابقاً، فلا يوجد ضرر كبير من الإصابة به مرة أخرى»، قلت له مغتبطاً. «خذ جرعة مضاعفة وانشره. انقله إلى القارة كلها! مرض جنسي جيد أفضل من سلام وهدوء مميت. الآن أعرف ما الذي يجعل العالم متمدناً: إنها الرذيلة، المرض، السرقة، الكذب، الفجور، الخراء. إن الفرنسيين شعب عظيم، حتى لو كان مصاباً بالزهري. لا تطلب مني أن أذهب إلى بلد محايد ثانية. لا تدعني أنظر إلى أبقار أخرى، أو إلى عدد آخر من البشر وأشياء أخرى».

إني حاد الطبع وبوسعي أن أغتصب راهبة.

بهذا المزاج دخلنا إلى المرقص الصغير الذي تتردد عليه صديقتنا، فتاة القبعات. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل، وكان أمامنا الكثير لنمضي وقتاً ممتعاً. كانت هناك ثلاث أو أربع عاهرات عند البار، واحدة أو اثنتان منهما ثملتان، بالطبع كنّ إنكليزيات. مخنثات، في أغلب الظن. رقصنا بضع رقصات وبعدها بدأت العاهرات يضايقننا.

من المدهش حقاً ماذا يمكن للمرء أن يفعل على الملأ في حانة فرنسية. فبالنسبة لأي قحبة، أي شخص يتكلم الإنكليزية، سواء كان ذكراً أم أنثى، هو

شخص منحط. والفتاة الفرنسية لا تحطّ من قدرها عندما تعرض نفسها على أجنبي، ولا تكون أكثر من أسد بحر متحضّر تم تدريبه على القيام بألعاب.

جاءت أدريان، فتاة القبعات، إلى البار لتتناول كأساً من الشراب. جلست على مقعد عالٍ مباعدة بين ساقيها. وقفت بجانبها وإحدى ذراعي ملتفة حول إحدى صديقاتها الصغيرات. كانت يدي الآن قد تسللت إلى داخل فستانها. داعبتها قليلاً ثم انزلقت من كرسيها، وطوقتني بذراعيها حول رقبتي، وخلسة فتحت فتحة بنطالي، وأغلقت يديها حول بيضتي. كان الموسيقيون يعزفون معزوفة فالس بطيئة، والأضواء خافتة. قادتني أدريان إلى ساحة الرقص، وفتحة بنطالي مشرعة. كانت تمسك بي بقوّة، وجرتني إلى منتصف ساحة الرّقص المكتظة مثل علبة سردين. كنا نتحرك بصعوبة في مكاننا من شدة الازدحام. ومرة أخرى، مدت يدها إلى فتحة بنطالي، وأخرجت قضيبي، وأسندته على فرجها. كان شيئاً معذباً. وإمعاناً في تعذيبي، مدت إحدى صديقاتها الصغيرات التي كانت بجانبنا يدها وأمسكت قضيبي بكل صفاقة. في تلك اللحظة، لم أعد قادراً على أن أتمالك نفسي وقذفت سائلي في يدها.

عندما عدنا إلى البار، كان كارل عند الزاوية، يقعي فوق فتاة يبدو أنها كانت تتدلّى باسترخاء على الأرض. بدا الانزعاج على وجه النادل وقال، «هذا مكان للشرب، وليس مخدعاً». رفع كارل رأسه ونظر إليه بذهول، وقد غطى أحمر الشفاه وجهه، وقد انفلتت ربطة عنقه وكانت تميل إلى أحد الجانبين، وكانت صدارته محلولة الأزرار، وشعره يتدلى فوق عينيه، وقال مغمغماً: «إنهن لسن عاهرات، إنهن شبقات».

جلس على الكرسي بلا ذراعين وذيل قميصه بارز من فتحة بنطاله. بدأت الفتاة تزرر فتحة بنطاله. وفجأة، غيّرت رأيها، وعادت وفتحتها ثانية، وأخرجت قضيبه، وانحنت فوقه وراحت تقبّله. كان ذلك قد بدأ يتجاوز الحدود، على ما يبدو. جاء مدير المرقص الآن ليقول لنا إننا يجب أن نتصرّف

بشكل مختلف، أو أن نرحل من هذا المكان. ولم يبدُ أنه كان منزعجاً من الفتيات؛ بل وبّخهن قليلاً، كما يوبّخ أطفالاً أشقياء.

كنّا على وشك أن نغادر في أي لحظة، لكن أدريان أصرّت على أن ننتظر حتى ساعة الإغلاق. وقالت إنها تريد أن تذهب إلى البيت معنا.

عندما أوقفنا سيارة أجرة أخيراً وتكدسنا في داخلها، اكتشفنا أننا كنا خمسة أشخاص. وكان على كارل أن يُخرج إحدى الفتيات، لكنه لم يستطع أن يقرّر أي واحدة منهن. في الطريق توقّفنا لشراء بعض السندويتشات، وقليلاً من الجبن والزيتون، وبضع زجاجات من النبيذ.

«سيصبن بخيبة الأمل عندما يرين كم بقي لدينا من النقود»، قال كارل.

فقلت: «جيد، إذن ربما يتركننا جميعهن. إنني متعب. أريد أن أستحمّ وألقي بنفسي على السرير».

ما إن وصلنا، حتى خلعت ثيابي وفتحت صنبور المياه في الحمّام. كانت الفتيات في المطبخ يحضرن الطعام. غصت في حوض الحمام وبدأت أرغي الصابون فوق جسمي، عندما دخلت أدريان وفتاة أخرى إلى الحمّام. قرّرتا أن تستحمّا أيضاً. خلعت أدريان ثيابها بسرعة، وانزلقت إلى الحوض معي. نزعت الفتاة الأخرى ثيابها أيضاً، ثم جاءت ووقفت بجانب الحوض. كنت أنا وأدريان في مواجهة أحدنا الآخر، ساقانا متشابكتان. مالت الفتاة الأخرى فوق حوض الحمام وراحت تداعبني. استلقيت في الماء الحار اللذيذ وتركتها تلف أصابعها المكسوة بالصابون حول قضيبي. وكانت أدريان تداعب فرجها وكأنها تريد أن تقول «حسناً، دعها تداعب ذلك الشيء قليلاً، لكن عندما يحين الوقت سأختطفه من يدها».

أصبحنا نحن الثلاثة الآن في حوض الحمّام، سندويتشة بيد وكأس النبيذ باليد الأخرى. وقرّر كارل أن يحلق ذقنه. جلست فتاته على حافة البيديه، تدردش وتمضغ سندويتشها. اختفت للحظة ثم عادت بقنينة كاملة من النبيذ

الأحمر الذي راحت تصبّه على أعناقنا. وسرعان ما أصبح لون الماء المكسو بالصابون بلون البرمنغنات.

في هذه اللحظة تملكني مزاج يدفعني لأن أفعل أيّ شيء. وعندما شعرت بالرغبة في التبوّل، رحت أفعل ذلك بهدوء. انتاب الفتاتان الذعر. يبدو أنني فعلت شيئاً غير أخلاقي. وفجأة بدأت تساورهما الريبة منا. هل سندفع لهما؟ وإذا كنا سندفع لهما، فكم؟ وعندما أخبرهما كارل مغتبطاً بأنه يوجد لديه حوالي تسعة فرنكات سيوزعها عليهما، ثار صخب بينهما. ثم ظنتا أننا كنا نمازحهما وأن هذه مجرد نكتة صغيرة سمجة أخرى، مثل تبوّلي في حوض الحمام. لكن لا، أصررنا على أننا جديون في ما نقوله. فأقسمتا بأنهما لم تسمعا شيئاً كهذا من قبل؛ إن هذا حقاً شيء لا يصدق، شنيع، غير إنساني.

«إنهما بربريان قذران»، قالت إحدى الفتيات.

«لا، إنهما إنكليزيان. إنكليزيان منحطّان»، قالت الأخرى.

حاولت أدريان أن تهدئ من روعهما. وقالت إنها تعرفنا منذ فترة طويلة وإننا نتصرّف معها على الدوام كرجلين محترمين، تصريح بدا غريباً بعض الشيء على أذنيّ بسبب طبيعة علاقاتنا معها. غير أن كلمة رجلين محترمين لم تكن تعني أكثر من أننا كنا ندفع لها دائماً لقاء خدماتها الصغيرة.

كانت تحاول باستماتة أن تعيد الوضع إلى ما كان عليه. كنت أكاد أسمعها وهي تفكر.

«ألا تستطيعان أن تعطياهما شيكاً؟» قالت متوسلة.

هنا أخذ كارل يضحك. كان على وشك أن يقول إنه لا يوجد لدينا دفتر شيكات عندما قاطعته، وقلت: «بالتأكيد، إنها فكرة جيدة ... سنعطي كلّ منكما شيكاً، كيف تريان ذلك؟» دخلت إلى غرفة كارل من دون أن أنبس بكلمة أخرى وخرجت ومعي دفتر شيكات قديم له. أحضرت له قلمه الباركر الجميل وقدمته له.

هنا أظهر كارل دهاءه، متظاهراً بأنه غاضب مني لأنني كشفت دفتر شيكاته ولأنني تدخلت في شؤونه، فقال: «إنك دائماً هكذا». (طبعاً بالفرنسية لكي تفهما ما يقوله) «أنا من يدفع دائماً لقاء هذه الحماقات. لماذا لا تعطيهما من شيكاتك أنت؟»

فأجبته بقدر ما أمكنني أن أبدو خجولاً بأنّ حسابي قد نضب. وواصل احتجاجه، أو أنه كان يتظاهر بذلك.

«لماذا لا تنتظرا حتى الغد؟» سأل، ملتفتاً إلى أدريان، «ألا تثقا بنا؟»

«لماذا ينبغي لنا أن نثق بكما؟» قالت إحداهن، «فمنذ لحظة ادعيتما بأنكما لا تملكان نقوداً. والآن تريدان أن ننتظر حتى يوم غد. آه، لا، لا نوافق على ذلك».

«حسناً إذن، يمكنكن أن تخرجن جميعكن»، «قال كارل، ورمى دفتر الشيكات على الأرض».

«لا تكن دنيئاً»، صاحت أدريان، «أعط كلّ منا مائة فرنك ولن نتحدث في هذا الأمر بعد ذلك، أرجوك».

«مائة فرنك لكلّ واحدة؟»

فقالت: «طبعاً، هذا ليس مبلغاً كبيراً».

قلت: «هيا، لا تكن رخيصاً إلى هذه الدرجة. كما أنني سأدفع لك نصف المبلغ بعد يوم أو يومين».

«هذا ما تقوله دائماً»، أجاب كارل.

«أوقف هذه المهزلة»، قلت له بالإنكليزية، «اكتب لهن الشيكات ودعنا نتخلّص منهن».

«نتخلّص منهن؟ ماذا، بعد أن نعطيهن الشيكات تريدني أن ألقي بهن إلى الخارج؟ لا يا سيدي، سأحصل على كامل قيمة النقود التي سأدفعها، حتى لو كانت الشيكات غير صالحة. إنهن لا يعرفن ذلك. وإذا تركناهن يخرجن بسهولة فسيساورهن الشك».

«هيه، أنت!» صاح، ملوحاً بالشيك لإحدى الفتيات، «ماذا أحصل لقاء هذا؟ أريد شيئاً مميزاً، فريداً من نوعه».

ومضى يوزع الشيكات. بدا الأمر هزلياً، وهو يعطي شيكاً لكل واحدة منهن بالدور. حتى لو كانت الشيكات صالحة، فقد كانت تبدو زائفة. ربما لأننا كنّا جميعاً عراة، كان يبدو أن الفتيات يشعرن الطريقة نفسها، بأنها صفقة زائفة. ما عدا أدريان، التي كانت تصدقنا.

كنت أتضرع بأن يقدمن لنا عرضاً بدلاً من أن يرغمننا على المضي في روتين «النيك». كنت منهكاً تماماً. كان لا بد من أن يقدمن لنا عرضاً طويلاً، حتى ينتصب قضيبي ولو كان انتصاباً صورياً. أما كارل، فقد كان يتصرف مثل رجل وزّع عليهن حقاً ثلاثمائة فرنك. وكان يريد أن يحصل على شيء لقاء المال الذي دفعه، وكان يريد شيئاً غير عادي.

بينما كنّ يناقشن الأمر في ما بينهن، صعدت إلى السرير: كنت بعيداً عما يجري تماماً، من الناحية العقلية، إلى درجة أنني بدأت أحلم بالقصّة التي كنت قد بدأت كتابتها منذ أيام قليلة وكنت أنوي أن أستأنف كتابتها عندما أستيقظ. كانت عن جريمة قتل بالفأس. تساءلت إن كان عليّ أن أحاول أن أضغط الحكاية وأركّز على القاتل السكران الذي تركته جالساً إلى جانب جثة الزوجة المقطوعة الرأس التي لم يحبّها طوال حياته. ربما كان عليّ أن أنقل قصة الجريمة من إحدى الصحف، وأبدأ حكايتي عن الجريمة من النقطة أو اللحظة التي تدحرجت فيها الرأس وسقطت عن الطاولة. وقلت في نفسي إنها ستكون قطعة رائعة، عندما يتجول الرجل المبتور الرجلين والذراعين في كرسيه المتحرك في الشوارع في الليل ويقف على رصيف صغير، رأسه على مستوى ركب المارين. كنت أريد مشهد رعب لأنه كانت توجد لدي فكرة رائعة أنهي بها القصة.

خلال فترة حلم اليقظة القصيرة التي حلمت بها استعدت المزاج الذي كان قد تعكر منذ عدة أيام مع قدوم الأميرة المخلصة بوكاهونتاس.

لكزة من أدريان لأفسح لها مكاناً بجانبي، أيقظتني. كانت تهمس شيئاً في أذني، شيئاً عن النقود مرة أخرى. طلبت منها أن تكرر ما قالته، ولكي لا أضيّع الفكرة التي خطرت لي، ظللت أكرّر لنفسي: «رأس يتدحرج من فوق الطاولة... رأس يتدحرج... رجل ضئيل يجلس على كرسي متحرك... ساقان... ملايين السيقان...».

«إنهن يرغبن في معرفة إن كنت ستتفضل وتعطيهن قليلاً من الفراطة لأجرة التاكسي. إنهن يقمن في منطقة بعيدة».

«بعيدة؟» كرّرت، ونظرت إليها شارداً، «كم بعيدة؟» (*تذكّر* عجلات، سيقان، رأس يتدحرج... ابدأ في منتصف جملة).

«مينيلمونتان»، قالت أدريان.

«أحضري لي قلم رصاص وورقة، هناك على الطاولة»، قلت متوسلاً.

«مينيلمونتان... مينيلمونتان...»، رحت أكرّر وكأنني منوم مغنطيسياً، وخربشت بضع كلمات، مثل عجلات مطاطية، رؤوس خشبية، سيقان لولبية، وما إلى ذلك.

«ماذا تفعل؟» هسهست أدريان، وهي تشدني بقوة، «ما خطبك؟».

«إنه أحمق»، صاحت، ونهضت من على السرير وفتحت يديها يائسة.

«أين الآخر؟» سألت، باحثة عن كارل.

«يا إلهي!» سمعتها تقول، كما لو كان الصوت يأتي من بعيد، «إنه نائم». وبعد فترة صمت ثقيلة، قالت، «حسناً، هذا ينهي كل شيء. تعالوا، هيا لنخرج من هنا! واحد سكران، والآخر ملهم. إننا نضيّع وقتنا. هكذا هم الأجانب ـ دائماً يفكّرون بأشياء أخرى. إنهم لا يريدون ممارسة الجنس، إنهم يريدون أن يُدغدغوا...»

يُدغدغوا. كتبت أيضاً. لا أذكر ما قالته بالفرنسية، لكن مهما كان، فقد ذكّرتني بصديق كنت قد نسيته .*يُدغدغوا*. كلمة لم استعملها منذ فترة طويلة.

وعلى الفور فكّرت بكلمة أخرى كنت نادراً ما أستخدمها : *"misling"* . لم أعد متأكّداً ماذا تعني. ماذا يهمّ؟ سأدونها في أي حال. هناك كلمات كثيرة سقطت من قاموس مفرداتي، بعد أن أقمت لفترة طويلة جداً في الخارج.

استلقيت ورحت أنظر إليهن وهن يتهيأن للمغادرة. كان ذلك مثل مشاهدة مسرحية على المسرح وأنت جالس في مقعد في مقصورة. وبما أنني كنت مشلولاً، فقد كنت أستمتع بهذا المشهد وأنا جالس في كرسي المقعدين. ولو خطر لإحداهن أن ترمي إبريق ماء عليّ، لما تحرّكت من مكاني. كنت سأرتعش وابتسم كما يبتسم المرء لملائكة مرحة.

كان كلّ ما أرغب به هو أن يذهبن ويتركنني مع أحلام يقظتي. لو كانت لديّ نقود معدنية، لألقيتها لهن.

بعد فترة بدت دهراً من الزمن، اتجهن نحو الباب. نفخت أدريان قبلة من بعيد، إيماءة غير حقيقية إلى درجة أني فُتنت بحركة ذراعها؛ رأيتها تنحسر شيئاً فشيئاً إلى ممر طويل حيث ترتد أخيراً إلى فم ضيق يشبه القمع، الذراع لا تزال مثنية عند الرسغ، لكنها كانت مستدقة، واهنة، إلى حد أنها أصبحت أخيراً أشبه بحزمة صغيرة من القشّ.

«نغل!» صاحت إحدى الفتيات، عندما صُفق الباب بشدّة، فأمسكت نفسي عن الرد: نعم، هذا صحيح. نغل، وأنتن قحبات، أليس كذلك. قحبة، شرموطة.

توقفت وقلت «خراء»، «بحقّ الجحيم ماذا أقول».

عجلات، سيقان، رأس يتدحرج ...جميل. غداً سيكون مثل أيّ يوم آخر، بل أفضل، أجمل، أكثر وردية. سيتوجه الرجل الذي يسير على الرصيف إلى نهاية الرصيف. في كانارسي. سيخرج في فمه سمكة.

أحسست بقرصة جوع ثانية. نهضت ورحت أبحث عن بقايا سندويتشة. لم يكن هناك أي فتات على الطاولة. توجهت إلى الحمّام شارد الذهن، لأتبول.

كانت هناك قطعتان من الخبز، وبضع قطع من الجبن، وعدد من حبات الزيتون المكدومة، المبعثرة في المكان. لا بد أن أحدهم ألقاها بقرف.

التقطت قطعة من الخبز لأرى إن كانت تصلح للأكل. أحدهم داس عليها بقدمه بغضب. كانت فيها كمية قليلة من الخردل. أم هل كان ذلك خردلاً؟ من الأفضل أن أجرب قطعة أخرى. التقطت قطعة نظيفة بعض الشيء، مبللة لأن أحداً ألقى بها على الأرضية الرطبة، وألقيت فوقها قطعة من الجبن.

في كأس بجانب البيديه، وجدت نقطة نبيذ. جرعتها، ثم قضمت قطعة صغيرة من الخبز بحذر شديد. لا بأس بها. لا، بل كان مذاقها جيداً. إن الجراثيم لا تصيب الجياع، أو الأشخاص الملهمين. إلى الجحيم، هذا القلق من ورقة السيلوفان، وما هي آخر يد لمستها. ولإثبات ذلك، مسحت مؤخرتي بها. ثم ابتلعتها. ما المشكلة؟ رحت أبحث عن سيجارة. لم تكن هناك سوى أعقاب سجائر. اخترت أطول سيجارة وأشعلتها. رائحة لذيذة. لا رائحة النشارة المحمّصة التي تنبعث من التبغ الأمريكي الحقيقي. لا شكّ أنها واحدة من سجائر كارل من ماركة غولواز بلو.

الآن بم أفكّر؟

جلست إلى طاولة المطبخ ورفعت قدميّ وأسندتهما فوقها. لنر الآن... ماذا في الأمر ثانية؟

لم أستطع أن أرى شيئاً أو أفكّر بشيء. أحسست بأنني على أحسن ما يرام.

ولماذا أفكّر في جميع الأحوال؟

نعم، إنه يوم عظيم. عدّة أيام في الواقع. نعم، كنا نجلس هنا منذ أيام قليلة فقط، أتساءل إلى أين سأذهب. ربما كان ذلك البارحة. أو منذ سنة. ما الفرق؟ يتمدد المرء ثم ينهار. الزمن ينهار أيضاً. العاهرات ينهرن. كلّ شيء ينهار. انهيار إلى مرض الزهري.

على عتبة النافذة، كان هناك عصفور مبكر يزقزق. وبمتعة، وبتكاسل،

تذكّرت أنني كنت قد جلست مثل هذه الجلسة في بروكلين هايتس منذ سنوات. في حياة أخرى. ربما لن أتمكن من رؤية بروكلين هايتس مرة أخرى، ولا كانارسي، ولا شلتر أيلاند، ولا مونتوك بوينت، ولا سكاوكوس، ولا بحيرة بوكوتوباغ، ولا نهر نيفيرسينك، ولا سرطان البحر، ولحم خنزير، ولا سمك السالمون المدخن، ولا محار الجبل. من الغريب كيف يستطيع المرء أن يغرق في الحثالة ويظن أنه في بيته. إلى أن يقول أحدهم *مينيهاها* أو *والا والا*. البيت. حيث تعلّق قبعتك، بمعنى آخر. بعيداً، قالت، وهي تقصد مينيلمونتانت. هذا ليس بعيداً. الصين الآن، إنها حقاً بعيدة. أو موزمبيق. داكي، إذا اندفعت بشكل أبدي. إن باريس مدينة غير صحية. ربما كان فيها شيء. جرّب لوكسمبورغ الصغيرة. بحقّ الجحيم، هناك آلاف الأماكن، مثل بالي. أو كارولنيس. مجنون، هذا يحتاج إلى مال طوال الوقت. مال، مال. لا يوجد مال. الكثير من المال. نعم، في مكان بعيد، بعيد جداً. ولا توجد كتب، ولا آلة كاتبة، لا يوجد شيء. لا تقل شيئاً، لا تفعل شيئاً. اسبح مع التيار. تلك الكلبة، نيس. ليست سوى فرج. يا لها من حياة! لا تنس الدغدغة!

نهضت، تثاءبت، تمطيت، وسرت مترنحاً نحو السرير.

إلى الأسفل، إلى الأسفل، إلى البالوعة الكونية. حيتان اللوياثان تعوم في أعماق يضيئها نور الشمس بشكل غريب. الحياة تستمر كالعادة في كل مكان. الإفطار عند الساعة العاشرة تماماً. رجل بلا ذراعين وبلا رجلين يدير البار بأسنانه. الديناميت يتساقط من طبقة الغلاف الجوي العليا. أربطة جوارب نسائية تهبط بشكل لولبي طويل رائع. امرأة أصيب جذعها بجرح بليغ تكافح باستماتة لتثبّت رأسها المقطوع بالبراغي.

أتريدين نقوداً لقاء ذلك. لماذا؟ إنها لا تعرف السبب. نقود فقط. فوق مظلّة من السرخس تتمدد جثّة جديدة تملؤها ثقوب بالرصاص. صليب حديدي يتدلى من عنقها. يطلب أحدهم سندويتشة. الماء مهتاج أيضاً من أجل السندويتش. ابحث في القاموس تحت حرف سين!

حلم غني، خصب، تخترقه طلقة من ضوء أزرق خفي. لقد غصت إلى ذلك المستوى الخطر حيث يعود المرء من باب النعمة والأعجوبة المطلقتين، إلى شكل أرزة. بطريقة حالمة مبهمة أدركت أنه يتعين عليّ أن أبذل جهداً هرقلياً. الكفاح للوصول إلى السطح مؤلم، مؤلم جداً. بين الحين والآخر، أتمكن من فتح عيني؛ أرى الغرفة، وكأني أراها من خلال سحابة، لكن جسدي يقبع في الأسفل، في الأعماق البحرية الوامضة. إن العودة إلى الخدر تثير شهوتي. سقطت إلى القاع الذي لا قرار له، حيث انتظرت مثل سمكة قرش. ثم ببطء، ببطء شديد، نهضت. كان شيئاً مثيراً. كلّ شيء مصنوع من الفلين ولا توجد زعانف. ما إن اقتربت من السطح حتى شدتني المياه إلى الأسفل مرة أخرى، تسحبني إلى الأسفل، في حالة من العجز اللذيذ، ابتلعتني الدوّامة الفارغة كي أنتظر هناك عبر ممرات الزمن اللانهائية حتى تتجمع الإرادة وترفعني مثل طوافة غارقة.

صحوت على صوت زقزقة العصافير في أذني. لم تعد الغرفة مغلفة بسحابة مائية، بل أصبحت صافية تسهل رؤيتها. على طاولتي عصفوران يتناحران على فتات من الخبز. اتكأت على مرفقي ورحت أراقبهما وهما يرفرفان بأجنحتهما نحو النافذة المغلقة. طارا إلى الدهليز، ثم عادا، يبحثان بيأس عن مخرج.

نهضت وفتحت لهما النافذة. واصلا طيرانهما حول الغرفة، وكأنهما مذهولان. لبثت في مكاني بدون أي حركة. وفجأة اندفعا عبر النافذة المفتوحة. «بونجور، مدام أورسيل»، راحا يزقزقان.

كان ذلك في رابعة النهار، في اليوم الثالث أو الرابع من الربيع...

هنري ميللر

مدينة نيويورك،

حزيران/ يونيه ١٩٤٠.

أعيد كتابتها في بيغ سور في أيار/ مايو ١٩٥٦.

مارا مارينيان

بالقرب من مقهى مارِينيان في الشانزليزيه، صادفتها.

لم تكن قد مضت فترة طويلة على تمكني من التغلب على مشاعري الأليمة بسبب فراقي لمارا سان لويس. ليس هذا اسمها الحقيقي، لكن لنطلق عليها هذا الاسم الآن بما أنها ولدت في جزيرة سان لويس حيث كنت أتسكع في أحيان كثيرة في الليل، لكي أدع الصدأ يتآكل في داخلي.

كان ذلك لأنني سمعت منها في ذلك اليوم، بعد أن قطعت الأمل منها واعتبرتها في عداد المفقودين. وأصبح بإمكاني أن أروي الآن ما يلي، بعد أن اتضحت لي بعض الأمور للمرة الأولى، مما زاد القصة تعقيداً.

يمكنني القول إن حياتي أصبحت بحثاً طويلاً عن *مارا* شمل الآخرين جميعهم، ومنحهم واقعية هامّة.

إن مارا موضوع هذه الأحداث ليست هي مارا الشانزليزيه ولا مارا جزيرة سان لويس. إن مارا التي أتحدث عنها تدعى إليان. كانت متزوّجة من رجل أُودع السجن لأنه كان يتداول نقوداً مزيفة، وكانت أيضاً عشيقة صديقي كارل الذي وقع في غرامها في البدء، ثم بدأ يعتريه الملل منها في عصر اليوم الذي أتحدث عنه، وأصبح ضجراً منها إلى درجة أنه لم يعد يستطيع أن يتحمّل فكرة الذهاب لزيارتها وحده.

كانت إليان امرأة شابة، ممشوقة القوام، جذّابة، باستثناء الشامات الكثيرة المتناثرة في أنحاء جسدها وطبقة الزغب التي تعلو شفتها العليا. في بادئ

الأمر، كانت هذه العيوب تزيد من حسنها في عينيّ صديقي، لكن بعد أن أخذ الملل يتسلل إليه ملهّا وبدأت رؤية هذه الأشياء تثير حنقه، وتدفعه أحياناً إلى إطلاق نكات لاذعة تجعلها تجفل وتغضب. وعندما كانت تجهش في البكاء كانت تزداد جمالاً على نحو غريب. وبدموعها المتساقطة والمتسربلة على وجهها، كانت تبدو امرأة ناضجة، لا ذلك المخلوق الخنثوي الرشيق الذي كان كارل يعشقه.

كان كارل وزوج إليان صديقين قديمين. كانا قد التقيا في بودابست حيث أنقذ زوجها كارل من التضور جوعاً، ثم أعطاه نقوداً ليعود إلى باريس. وسرعان ما تحوّل الشعور بالامتنان الذي كان كارل يكنّه لهذا الرجل في البدء، إلى شعور بالاحتقار والسخرية عندما اكتشف أنه رجل غبي عديم الإحساس. وبعد عشر سنوات، التقيا صدفة في أحد شوارع باريس. ولم يكن كارل سيقبل دعوته إلى العشاء لولا أن الزوج أرى كارل صورة زوجته الشابة فافتتن بها على الفور. وكما قال لي فقد ذكّرته بفتاة تدعى سمّت مارسين كان يكتب عنها آنذاك.

أذكر جيداً كيف أن قصّة مارسين ازدهرت عندما بدأت لقاءاته السرية مع إليان تتكرر. كان قد رأى مارسين ثلاث أو أربع مرات فقط بعد لقائهما في غابة مارلي حيث صادفها برفقة كلب سلوقي جميل. أذكر الكلب جيداً لأنه عندما بدأ يبذل جهداً كبيراً في كتابة القصّة، كان الكلب أكثر واقعية (بالنسبة لي) من المرأة التي كان يُفترض أنه وقع في غرامها. وبدخول إليان في حياته، بدأت شخصية مارسين تأخذ شكلاً وروحاً، حتى أنه وهب مارسين واحدة من شامات إليان العديدة، الشامة القابعة في مؤخرة عنقها التي جعلته، حسب قوله، يتقد شهوة كلما قبّلها.

وخلال شهور عدّة، بدأ يجد متعة في تقبيل شامات إليان الجميلة، منها الشامة القابعة في ساقها اليسرى، بالقرب من منطقة التقاء فخذيها. لكنها لم تعد تثير شهوته. وعندما أنهى قصّة مارسين، انطفأت حدة عاطفته نحو إليان.

وجاءت الضربة القاضية عندما أُلقي القبض على زوجها وحُكم عليه بالسجن. فعندما كان الزوج طليقاً، كانت هناك على الأقل إثارة وجود الخطر؛ أما الآن، وبعد أن أصبح يقبع بأمان وراء القضبان، أضحى كارل وجهاً لوجه مع عشيقة لديها طفلان يجب إعالتهما، اعتبرت أنه الشخص الوحيد الذي سيعيلها هي وأطفالها ويوّفر لهم الحماية. لم يكن كارل شخصياً رجلاً بخيلاً، لكنه لم يكن معيلاً. ويمكنني القول إنه شخص مولع بالأطفال أيضاً، لكنه لم يكن يرغب في أن يؤدي دور الأب لطفلين يحتقر أبيهما. وفي الظروف الحالية، كان أفضل شيء يستطيع أن يفكّر به هو أن يجد عملاً لإليان، وهذا ما كان يسعى إليه. وعندما لم يكن يملك نقوداً، كان يأتي ويتناول الطعام معها. وكان بين الحين والآخر يشتكي من أنها تعمل ساعات طويلة، وأنها تدمّر جمالها؛ وبالطبع، كان يشعر في سريرته بالسعادة لذلك، لأن إليان المتعبة والمنهكة لن تستهلك الكثير من وقته.

في اليوم الذي أقنعني فيه أن أرافقه لزيارتها كان مكدراً، معكر المزاج. فقد تلقى منها برقية في ذلك الصباح، قالت فيها إنه لا يوجد عندها عمل في ذلك اليوم، وطلبت منه أن يأتي لزيارتها في أبكر وقت ممكن. وكان قد قرّر أن يذهب لزيارتها في الساعة الرابعة بعد الظهر، وأن يغادر برفقتي بعد العشاء بقليل. وكان من المفترض أن أختلق عذراً يمكّنه من الانسحاب من دون إحداث أي مشكلة.

عندما وصلنا وجدت ثلاثة أطفال لا طفلين، فقد نسي أن يخبرني أنه يوجد أيضاً طفل رضيع. مجرد سهو، على حد قوله. ويجب أن أقول إن الأجواء لم تكن أجواء عشّ حبّ خالص. فقد كانت عربة الطفل مركونة عند أسفل درجات الفناء الوسخ، والطفل يصرخ ويبكي بأعلى صوته. وفي الداخل، كانت ثياب الأطفال معلقة كي تجف، وكانت النوافذ مشرعة على آخرها، والذباب يتطاير في كل مكان. وكان الطفل الأكبر يناديه بابا، الأمر الذي كان يزعجه كثيراً. ثم طلب من إليان بفظاظة

وبنبرة جافة أن ترسل الأطفال إلى الغرفة، فكاد أن يثير فيضاً من الدموع. ورمقني بنظرة من تلك النظرات البائسة التي تقول: «لقد بدأت للتو... كيف يمكنني أن أخرج من هذه المحنة». ثمّ، وعلى نحو يائس، بدأ يتظاهر بأنه سعيد ويشعر بالمرح، وطلب مشروباً، وراح يلاعب الأطفال على ركبتيه ويتلو عليهم بعض الأشعار، ويربّت على إليتي إليان، بسرعة وبدون اهتمام، وكأنها قطعة من لحم الخنزير كان قد طلبها لهذه المناسبة. حتى أنه ذهب شأواً أبعد من ذلك في تظاهره بالمرح. فقد أشار إلى إليان بأن تقترب منه والكأس بيده، وقبّلها أولاً على الشامة الأثيرة لديه، ثم طلب مني أن أقترب أكثر، ودّس يده الأخرى في بلوزتها، وأمسك بأحد ثدييها، وببرود شديد، طلب مني أن أقدرّ جماله.

كنت قد رأيت منه مثل هذا التصرف من قبل مع نساء أخريات كان قد وقع في غرامهن. وكانت عواطفه تمر عادة في الدورة نفسها: هيام، برودة، لامبالاة، سأم، سخرية، احتقار، اشمئزاز. أحسست بالحزن على إليان. إذ إن وجود الأطفال، والفقر، والعمل الشاق، والشعور بالمهانة، لم تكن أموراً تثير الضحك. وعندما تبين لكارل أن دعابته سخيفة، اعتراه فجأة شعور بالخجل من نفسه. فوضع كأسه، وبنظرة كلب مهزوم، طوقها بذراعيه، وقبّلها على جبينها. وقد فعل ذلك ليثبت أنها لا تزال ملاكاً، حتى لو كان ردفاها شهيين، وثديها الأيسر شديد الإغراء. ثم ارتسمت على وجهه ابتسامة بلهاء، وجلس على الأريكة، وأخذ يتمتم نعم، نعم، وكأنه يريد أن يقول «هكذا تسير الأمور، إنه أمر محزن، لكن ماذا بوسعك أن تفعل؟».

وللتخفيف من حدة التوتّر، تطوّعت لأن آخذ الأطفال في نزهة بمن فيهم الطفل الصغير في العربة. وفي الحال تملك كارل شعور بالذعر، فلم يكن يرغب في أن أخرج في نزهة. ومن حركات وجهه من وراء ظهر إليان، فهمت أنه لم يحن بعد وقت قيامه بأداء واجباته الغرامية. وبصوت مرتفع قال إنه سيأخذ الأطفال في نزهة؛ كان يريد أن يفهمني من وراء ظهرها، بحركاته

وإشارات يديه المخصصة للصم والبكم، بأنه يريدني أن أمضي وقتاً معها، مع إليان. وحتى لو كنت أرغب في مضاجعتها، فلم يكن بوسعي فعل ذلك، لأنه يكن هنانك وجود للرغبة لدي. كما انتابتني الرغبة في الإمعان في تعذيبه بسبب سلوكه الفظ والقاسي معها. في هذه الأثناء، وبعد أن فهم الأطفال ما كان ينويه بعد أن رأوا حركاته وإشاراته المخصصة للصم والبكم من وراء ظهر أمّهم، بدأوا يتصرفون وكأن الشيطان قد تلبسهم. فراحوا يتوسلون ويستجدون، ثم أخذوا يصرخون ويجأرون ويخبطون بأقدامهم بغضب لا يمكن السيطرة عليه. وبدأ الطفل في العربة يزعق ويبكي ثانية، وأخذ الببغاء يصرخ، وراح الكلب يعوي. وعندما رأى الأطفال أنهم لن يتمكنوا من تحقيق ما كانوا يصبون إليه، بدأوا يقلدّون ألاعيب كارل التي رأوا أنها مسلية. وكانت حركاتهم بذيئة للغاية، ما جعل إليان المسكينة تشعر بالارتباك، ولم تعرف ماذا دهاهم.

عند ذلك جن جنون كارل. ولدهشة إليان، تحوّلت حركاته وإيماءاته الخرساء فجأة إلى العلن، وبدا وكأنه يقلّد الأطفال هذه المرة. أما أنا فلم يعد بإمكاني أن أتمالك نفسي. فانفجرت ضاحكاً، وعلى الفور، حذا الأطفال حذوي. ولكي يسكت اعتراضها، دفع كارل إليان على الأريكة، وراح يلوي لها قسمات وجهه، ويبتسم لها تلك الابتسامات العريضة المتجهمة، وراح يتكلم مثل قرد بتلك اللهجة النمساوية التي تمقتها. وتكوّم الطفلان فوقها، يصرخان مثل دجاج غينيا، ويفعلان تلك الحركات البذيئة التي لم تتمكن من إيقافها لأن كارل بدأ يدغدغها ويعض عنقها وساقيها وردفيها ونهديها. وارتفعت تنورتها وأصبحت عند رقبتها، وهي تتلوى وتصرخ وتضحك، حتى كادت أن تنفجر، وفي الوقت نفسه، كانت غاضبة. وعندما تمكنت أخيراً من التملص منه، انفجرت أخيراً في بكاء شديد. جلس كارل إلى جانبها، مرتبكاً، مذهولاً، وراح يتمتم كما من قبل - نعم، نعم. وبهدوء أمسكت الطفلين من يديهما وقدتهما إلى الفناء، حيث رحت أسلّيهما بقدر ما أستطيع مفسحاً المجال للعشيقين ليأخذا وقتهما.

عندما عدت وجدت أنهما دخلا إلى الغرفة المجاورة. كانا هادئين إلى درجة ظننت في بادئ الأمر أنهما خلدا إلى النوم. لكن سرعان ما فُتح الباب، ومدّ كارل رأسه، وابتسم لي ابتسامته العريضة التي تكاد تشبه ابتسامة مهرّج تعني «كلّ شيء على ما يرام، لقد قمت بالواجب». وسرعان ما ظهرت إليان، متوردة وراضية تماماً. استلقيت على الأريكة ورحت ألاعب الأطفال بينما خرج كارل وإليان لشراء طعام العشاء. وعندما عادا كانا في غاية السعادة. ساورني شك بأنّ كارل، الذي ابتسم وأشرق وجهه لمجرد ذكر الطعام، قد جرفته حماسته ووعد إليان بأشياء لا ينوي أن ينفذها. كانت إليان ساذجة على نحو غريب، وسهلة الخداع؛ ربما كان ذلك بسبب الشامات المتناثرة على جسدها التي تذكّرها دائماً أن جمالها نقي لا تشوبه شائبة. إذ إن الإدعاء بأنه أحبّها بسبب الشامات على جسدها، وهو الأسلوب الذي كان يتبعه معها، جعلها عاجزة عن الدفاع عن نفسها بشكل بائس. لكنها بدأت تزداد تألقاً. تناولنا كأساً أخرى من آرنير بيكون، وكانت كأس واحدة كثيرة عليها، ثم، عندما بدأ يخفت بريق الغسق شيئاً فشيئاً، بدأنا نغني.

في هذا المزاج رحنا نغني أغاني ألمانية، وكانت إليان تغني معنا أيضاً مع أنها كانت تكره اللغة الألمانية. أصبح كارل شخصاً مختلفاً الآن، فلم يعد خائفاً. لعله ضاجعها مضاجعة لذيذة رائعة، وكان قد تناول ثلاث أو أربع كؤوس، وأصبح يشعر بالجوع. وكان الليل قد بدأ يهبط، وسرعان ما سيصبح حراً. باختصار، كان اليوم مرضياً في كلّ شيء.

عندما يصبح كارل لطيفاً وصريحاً، يغدو رائعاً. إذ بدأ يتكلّم بتوقّد عن النبيذ الذي اشتراه، نبيذ غالٍ جداً، وفي مثل هذه المناسبات، كان يصرّ دائماً على أن يشتري لي نبيذاً غالي الثمن. وبينما راح يتحدّث عن النبيذ، أخذ يلتهم المقبلات التي زادته عطشاً. حاولت إليان أن تكبح جماحه، لكن لم يعد بوسع شيء أن يوقفه الآن. دسّ يده وأخرج أحد ثدييها ثانية، هذه المرّة من دون

اعتراض منها، وبعد أن صبّ قليلاً من النبيذ فوقه، راح يلتهمه بنهم شديد ـ أمام الأطفال. ثم أراني الشامة على ساقها اليسرى، قريباً من المنطقة التي تفصل بين فخذيها. ومن الطريقة التي كانت تسير فيها الأمور، ظننت أنهما سيعودان إلى غرفة النوم، لكنه، فجأة أعاد حلمتها إلى داخل بلوزتها، وجلس وراح يقول: «إني جائع، إني جائع، يا عزيزتي»، بنبرة لا تختلف عن قوله «ضاجعيني، ضاجعيني، لا يمكنني أن أنتظر ثانية أخرى!».

أثناء تناول الطعام الذي كان لذيذاً، بدأنا نتحدث في مواضيع غريبة. عندما كان يأكل، وخصوصاً إذا كان يستمتع بالطعام، كان كارل دائماً يقول كلاماً مشتّتاً لا صلة بينه لأنه كان يريد أن يركّز على الطعام والنبيذ. ولكي يتفادى أخطار الدخول في حديث جدّي، حديث يتدخّل بعملياته الهضمية، كان يلقي ملاحظات عشوائية ذات طبيعة يظن أنها تلائم لقمة الطعام التي يتناولها أو كأس النبيذ التي كان على وشك أن يجرعها. وبهذه الطريقة المرتجلة كان يقول إنه التقى أخيراً بفتاة ـ لم يكن واثقاً إن كانت قحبة أم لا، وماذا يهمّ؟ ـ وإنه يفكّر بأن يعرّفها عليّ، وقبل أن أتمكن من سؤاله عن السبب، يضيف «إنها من النوع الذي تحبّه».

«أعرف النوع الذي تحبه»، يتابع كلامه ملمحاً بسرعة إلى مارا من جزيرة سان لويس، ثم يضيف، «إن هذه أفضل بكثير، سأدبّرها لك».

وفي معظم الأحيان، عندما كان يقول شيئاً كهذا، لا يكون ثمة أحد في باله. كان يقول ذلك لأن فكرة أن يعرّفني على فتاة ذات جمال أسطوري تملأ رأسه. وثمة شيء آخر، وهو أنه لم يكن يحبّ ما كان يسميه «من النوع الذي أحبّه». وعندما كان يريد أن يزعجني، كان يلمح إلى أنه توجد آلاف الفتيات من النوع الذي يعجبني يجبن أرجاء أوروبا الوسطى، وأن رجلاً أمريكياً واحداً يجد هذا النوع من النساء جذّاباً. وإذا أراد أن يكون خبيثاً معي، كان يضيف شيئاً من السخرية مثل: «لا يقل عمرها عن الخامسة والثلاثين، يمكنني أن أعدك

بذلك». وفي بعض الأحيان، كما هو الحال الآن، كنت أتظاهر بأنني أصدق ما يقوله، وأبدأ إمطاره بالأسئلة التي يرد عليها بصفاقة وبغموض. وكان أحياناً، وبخاصة إذا سخرت منه، يزيّن قصته بتفاصيل مقنعة إلى درجة أنه يصدق كذبته في نهاية الأمر. وفي تلك اللحظات، ترتسم على وجهه قسمات شيطانية حقيقية، ومثل انتشار النار في الهشيم، كان يلفق أحاديث وأحداثاً غير عادية بسرعة. ولكي لا يفقد زمام الأمور، كان يشن هجمات متكرّرة على القنينة، ويتناول منها جرعات طويلة، وكأنها مجرد زبد، وكلما ألقى برأسه إلى الوراء، ازداد وجهه احمراراً، وبرزت العروق على جبهته في شكل عقد، وازداد صوته حدة واهتياجاً، ولا يعود قادراً على التحكم بقسمات وجهه، فتصبح عيناه ثاقبتين وكأنه أصيب بلوثة من الهلوسة. وعندما يتوقف فجأة، كان يتطلع حوله بنظرة وحشية، ويأتي بحركة مثيرة ويُخرج ساعته، ثمّ، وبصوت هادئ، وعلى نحو تقريري، يقول: «بعد عشر دقائق ستكون واقفة عند ناصية شارع كذا وكذا، وهي ترتدي ثوباً سويسرياً منقّطاً، وتحمل حقيبة يدوية تحت ذراعها. إذا أردت أن تراها، اذهب وشاهدها بأم عينك». وبذلك يحوّل الحديث بلا مبالاة إلى موضوع بعيد بما أنه قدّم لنا إثباتاً على صحة كلماته. وبالطبع لا يتزحزح أحد عادة ليتحقق من أقواله المثيرة للدهشة. وكان يقول: «إنك تخاف، إنك تعرف أنها ستكون واقفة هناك ...»، ويقوله هذا، كان يضيف تفصيلاً مميّزاً آخر، بشكل عرضي، ودائماً بنبرة شخص واثق، كما لو كان يبعث برسالة من العالم الآخر. أما في التنبؤات التي يمكن التحقق منها مباشرة، والتي لم تكن تؤدي إلى إلغاء وجبة طعام دسمة، أو سهرة، يكون في الغالب صادقاً، وما إن يبدأ حديثه، حتى ينتاب الأشخاص الذين يستمعون إليه شعور بأن شيئاً بارداً يسري في عمودهم الفقري. وغالباً ما ينتهي الحديث الذي يبدأ بالتهريج والثرثرة بأشياء رهيبة وغريبة. فإذا كان قد بزغ القمر الجديد، وصادف أن تزامنت هجماته مع مراحل قمرية معينة، كما لاحظت في بعض

الأحيان، فإن الأمسية تتحول إلى شيء بشع. إذ كانت رؤية القمر بشكل مفاجئ تثير أعصابه تماماً. «ها هو!»، كان تماماً كما لو كان قد رأى شبحاً، يهمهم قائلاً، «إنه شيء سيئ، إنه شيء سيئ»، ويفرك يديه باهتياج شديد، ثم يذرع الغرفة جيئة وذهاباً، مطرق الرأس، وفمه نصف فاغر، ولسانه يتدلى مثل قطعة قماش حمراء.

ومن حسن الحظ، أنه لم يكن هناك قمر في هذه المناسبة، أو إن كان هناك قمر، فلم يتسلل بعد شعاعه الذي يبعث على الجنون إلى فناء بيت إليان الصغير. ولم يكن تأثيره عليه أسوأ من أن يبدأ في رواية قصّة طويلة عن زوج إليان الأحمق. كانت قصّة مضحكة، وصحيحة كما تبين لي في ما بعد، تدور حول كلبين ألمانيين من فصيلة دشند، راح الزوج ينظر إليهما بطمع. فقد كان قد رآهما يتجولان طليقين، ولم يكن صاحبهما في مرأى البصر، ولم يقنع بأنه نجح في ترويج نقود مزيفة فقط، بل قرّر أيضاً أن يسرق الكلبين وأن يطلب فدية لاستعادتهما. وصُعق عندما قُرِع الجرس ذات صباح، وفتح الباب ليجد مخبراً فرنسياً بانتظاره. كان يُطعم الكلبين طعام فطورهما. وفي الحقيقة، كان قد تعلق بالكلبين إلى حد أنه نسي كل شيء يتعلق بالجائزة التي كان يأمل الحصول عليها. واعتبر أن إلقاء القبض عليه ضربة حظ قاسية لأنه كان يعامل الحيوانات بلطف... وقد ذكّرت هذه القصة كارل بحوادث أخرى شهدها عندما كان يقيم مع الرجل في بودابست. كانت حوادث سخيفة، مضحكة، لا يمكن أن تحدث إلا في حياة شخص نصف مخبول، كما كان كارل يسميه.

وعندما انتهت وجبة الطعام، أحسّ كارل بالراحة إلى درجة أنه قرّر أن يأخذ غفوة قصيرة. وعندما تبين لي أنه غطّ في النوم، شكرت إليان وخرجت. لم تكن لديّ أي رغبة في أن أفعل شيئاً معها؛ ورحت أتمشى حتى ساحة النجمة التي لم تكن بعيدة كثيراً، ثم أخذت أشق طريقي بشكل غريزي باتجاه الشانزليزيه نحو تويلري، وخطر لي أن أقف في الطابور وأحصل على كوب

من القهوة السوداء. أحسست بالبهجة وبأنني في سلام مع العالم. إذ إن بهاء وألق الشانزليزيه كان يتناقض بشكل غريب مع الأجواء في ذلك الفناء الذي كانت عربة الطفل لا تزال فيه. لم تكن بطني ممتلئة كثيراً، لكنني كنت أرتدي ثياباً جيدة ومهندماً أيضاً، من أجل التغيير. وأذكر أنني كنت قد دفعت نقوداً لكي ألمّع حذائي في وقت مبكر من ذلك اليوم.

وبينما كنت أتمشى على طول الجادة العريضة، تذكّرت فجأة أول مرة زرت فيها الشانزليزيه، قبل حوالي خمس أو ستّ سنوات. فقد كنت قد ذهبت إلى السينما حينها، ولما كنت مبتهجاً انطلقت إلى الشانزليزيه لأحتسي مشروباً قبل أن أعود إلى البيت. وكنت قد احتسيت بضع كؤوس وحيداً في بار صغير في أحد الشوارع الفرعية. وبينما كنت أجرع كأسي، تذكّرت أحد أصدقائي القدامى في بروكلين وتمنيت كثيراً أن يكون معي في ذلك الحين، ودار بيني وبينه حديث في عقلي. كنت لا أزال أكلّمه وأنا أشق طريقي باتجاه الشانزليزيه. كنت منتشياً للغاية، وشعرت بالحرج عندما رأيت جميع تلك الأشجار. تطلعت حولي مشوشاً، ثمّ مشيت نحو أضواء المقهى. ما إن اقتربت من مارينيان، حتى أمسكت بذراعي قحبة جذّابة، رشيقة، معسولة اللسان، وراحت تسير إلى جانبي. لم أكن أعرف آنذاك سوى عشر كلمات فرنسية، وبتأثير الأضواء المتلألئة، والأشجار الوارفة الكثيرة، وأريج الربيع، والوهج الدافئ الذي يتسلل في داخلي، أحسست بالعجز وبأنه لا حول لي ولا قوة. كنت أعرف تماماً أنني سأواجه هذه اللحظات. كنت أعرف أنني سأُهزم، وعبثاً حاولت أن أطلب منها أن تتوقف، محاولاً أن نتوصل إلى تفاهم ما. وأتذكّر أننا وقفنا أمام تيراس مارينيان الذي كان يضج بالحيوية ويعجّ بالناس. أذكر أنها حشرت نفسها بيني وبين الحشد، وبسرعة كبيرة لم أتمكن من إيقافها، راحت تفك أزرار معطفي وأحكمت قبضتها عليه. فعلت ذلك وهي تظهر أكثر الإيحاءات إثارة بشفتيها. وكانت أي مقاومة أنوي أن أظهرها، مهما كانت ضعيفة، تتلاشى

على الفور. وما هي إلا دقائق قليلة حتى وجدنا نفسينا في غرفة أحد الفنادق، وقبل أن أتمكن من قول غالاغير"Gallagher"، كانت قد بدأت تمصّ قضيبي بطريقة تنم عن خبرة شديدة، بعد أن عرّتني أولاً من كلّ شيء، ما عدا القطع النقدية المعدنية القليلة المتبقية في جيب معطفي.

كنت أتذكّر هذه الحادثة والزيارات السخيفة التي كنت أقوم بها إلى المستشفى الأمريكي في نوويي بعد بضعة أيام (لمعالجة حالة متخيّلة من السفلس)، عندما لاحظت فجأة فتاة أمامي تلتفت نحوي لتجذب انتباهي. وقفت هناك تنتظرني لكي أقترب منها، وكأنها كانت واثقة من أنني سأمسكها من ذراعها ونتابع سيرنا في الشارع. وهذا تماماً ما فعلته. لا أظن أنني توقّفت عن اللحاق بها. ويبدا أن الشيء الطبيعي في العالم يريد أن يقول، رداً على السؤال المعتاد، «مرحباً، إلى أين أنت ذاهب؟». . «لماذا، إلى لا مكان، لنجلس في مكان ما ونحتسِ كأساً».

ربما كان استعدادي، ورباطة جأشي، وعدم مبالاتي، بالإضافة إلى هندامي الجيد، وانتعالي حذاء لامعاً، قد أعطى انطباعاً بأنني مليونير أمريكي. وعندما اقتربنا من أضواء المقهى المتلألئة، لاحظت أنه المارينيان. ومع أنه لم تكن هناك حاجة للظلّ، كانت المظلات الملونة تنتصب مفتوحة فوق الطاولات. وكانت الفتاة ترتدي ثياباً خفيفة وتضع حول رقبتها شارة القحبة المثالية وهي قطعة فراء رثة، بالية، أكلها العث، كما بدت لي. ركزت اهتمامي قليلاً على كل شيء فيها ما عدا عينيها اللتين كانتا بلون البندق، واللتين كانتا في غاية الجمال. ذكّرتاني بفتاة كنت قد وقعت في غرامها. من هي، لم أستطع أن أتذكّر في هذه اللحظة.

لسبب ما كانت مارا، كما كانت تسمي نفسها، تموت لكي تتحدث باللغة الإنكليزية التي كانت قد تعلمتها في كوستاريكا ، حيث كانت تدير نادياً ليلياً، كما قالت. كانت هذه هي المرّة الأولى، خلال السنوات التي أمضيتها في

باريس، تظهر فيها قحبة رغبتها في أن تتكلم اللغة الإنكليزية. من الواضح أنها كانت ترغب في ذلك لأنه يذكّرها بالأيام الجميلة التي أمضتها في كوستاريكا، حيث كانت شيئاً أفضل من مجرد عاهرة. وكان هناك سبب آخر السيد وينتشيل الذي كان أميركياً رائعاً وكريماً، جنتلمان حقيقي، على حد قولها، وكانت قد صادفته في باريس بعد عودتها من كوستاريكا وهي مفلسة ومحطمة القلب. وكان السيد وينتشيل عضواً في أحد النوادي الرياضية في نيويورك، ومع أنه كان يسيطر على زوجته ويتحكم بها، فقد كان يعاملها معاملة رائعة. ولأنه كان حقاً رجلاً محترماً، عرّف السيد وينتشيل مارا على زوجته، وذهبوا ثلاثتهم إلى دوفيل وقاموا بنزهة ممتعة. هكذا قالت. ربما كان ثمة مسحة من الصدق في كلامها، لأنه يوجد بالفعل أشخاص مثل السيد وينتشيل من حولنا يلتقطون بين الحين والآخر، في حمأة حماستهم، قحبة ويعاملونها كسيدة. وفي بعض الأحيان، قد تكون القحبة الصغيرة سيدة حقاً. لكن كما كانت مارا تقول، كان وينتشيل هذا أميراً بحق، ولم تكن زوجته سيئة أيضاً. وبشكل طبيعي غضبت الزوجة، عندما اقترح السيد وينتشيل أن يناموا ثلاثتهم في سرير واحد. لكن مارا لم تلمها على ذلك، وقالت «كانت محقّة».

لكن السيد وينتشيل ذهب الآن، والشيك الذي تركه لمارا قبل أن يغادر إلى أمريكا تبخّر منذ زمن بعيد. تبخّر بسرعة لأنه، كما تبين لي أنه ما إن اختفى السيد وينتشيل حتى برز رامون. وكان رامون هذا في مدريد، يحاول أن يفتتح ملهى ليلياً، لكن الثورة اندلعت آنذاك، واضطر للهرب. وبالطبع كان مفلساً عندما وصل إلى باريس. وكان رامون أيضاً رجلاً طيباً، كما تقول مارا. ووثقت به تماماً، لكنه ذهب الآن أيضاً، ولا تعرف أين اختفى، لكنها كانت واثقة من أنه سيكتب لها ذات يوم. كانت متأكدة من ذلك، مع أنها لم تسمع ولا كلمة منه منذ أكثر من سنة الآن.

دار كلّ هذا الحديث بينما كانت تقدم لنا القهوة. فقد أثارتها تلك اللغة

الإنكليزية الغريبة التي بسبب صوتها الأجش الخفيض، وحماستها المثيرة للشفقة، وجهدها الواضح لإرضائي (ربما كنت سيد وينتشيل آخر؟). توقفت، توقفت لحظات طويلة، تذكّرت خلالها كلمات كارل فجأة على العشاء. كانت بالفعل من «النوع الذي يلائمني»، ومع أنه لم يقدم لي أي نبوءة هذه المرة، فقد كانت حقاً المرأة التي كان قد وصفها لي من وحي تلك اللحظة، وهو يخرج ساعته بطريقة تمثيلية ويقول: «بعد عشر دقائق ستكون واقفة عند ناصية شارع كذا وكذا».

«ماذا تفعل هنا في باريس؟» سألتني محاولة أن تجد أرضاً مشتركة بيننا. ثم، وما إن بدأت أجيب، حتى قاطعتني لتسأل إن كنت جائعاً. قلت لها إني تناولت وجبة طعام رائعة منذ قليل. اقترحت أن نتناول مشروباً آخر وقهوة. وفجأة لاحظت أنها تحدق بي بطريقة غير مرحبة، وأحسست بشيء من الضيق. تكوّن لدي انطباع بأنها بدأت تفكّر بالسيد وينتشيل ثانية، وربما كانت تجري مقارنة بيني وبينه، أو أنها كانت تماهي بيني وبينه، وربما كانت تحمد الله لأنه أرسل لها رجلاً أمريكياً محترماً آخر وليس فرنسياً يابس الرأس. بدا لي أنه من العدل أن أتركها تواصل سلسلة أفكارها، إن كانت حقاً تلك هي سلسلة أفكارها. لذلك، وبقدر ما أمكنني من لطف، أخبرتها بأنني لست مليونيراً بأي شكل من الأشكال.

في هذه اللحظة، انحنت فوقي فجأة، واعترفت لي بأنها جائعة، تتضور جوعاً. اعترتني الدهشة. فقد مضى وقت العشاء منذ فترة طويلة، بالإضافة إلى ذلك، وبغباء، لم يخطر ببالي أن قحبة من الشانزليزيه قد تكون جائعة. كما أحسست بشيء من الخجل لأنني لم أسألها إن كانت قد أكلت أم لا. «لم لا ندخل؟» اقترحت عليها، ظناً مني بأنها ستكون سعيدة لأن تتناول وجبة طعام في المارينيان. إن معظم النساء، إن كنّ جائعات، وبخاصة إن كنّ يشعرن بجوع شديد، سيقبلن هذا الاقتراح على الفور. لكن هذه المرأة هزّت رأسها.

لم تكن تفكّر بتناول الطعام في المارينيان فهو غالي الثمن. قلت لها أن تنسى ما قلته لها منذ قليل، بأنني لست مليونيراً وما إلى ذلك، لكنّها ظلت مصرّة على ذلك. كانت تفضل أن نبحث عن مطعم صغير عادي ـ لا يهم في أي مكان ـ فهناك مطاعم كثيرة قريبة من هذه المنطقة، كما قالت. قلت لها إن معظم المطاعم قد أغلق أبوابه الآن، لكنّها أصرّت على أن نبحث، في جميع الأحوال. وكما لو أنها نسيت جوعها، اقتربت مني وضغطت على يدي بدفء، وقالت كم أنت شخص رائع. ثم بدأت تعيد حكاية قصّة حياتها في كوستاريكا وفي أماكن أخرى من الكاريبي من البداية، أماكن لا أستطيع أن أتخيّل أن فتاة مثلها يمكن أن تعيش فيها. وأخيراً وصلت إلى هذا، بأنها لم تخلق لتكون قحبة، وأنها لن تكون أبداً. كنت أتمنى أن أصدّقها، فقد مللت ذلك تماماً.

وتابعت كلامها: «إنك أول رجل يعاملني كإنسانة منذ فترة طوية. أريدك أن تعرف أن مجرد الجلوس والتكلم معك شرف عظيم لي». في هذه اللحظة، أحست بقرصة جوع وارتجفت قليلاً، وحاولت أن تلف قطعة الفراء الرفيعة الرثة حول رقبتها. كانت القشعريرة تسري في ذراعيها، وكان ثمة شيء متناقض في ابتسامتها ينم عن شجاعة وعن عدم مبالاة. لم أشأ أن أبقيها أكثر من ذلك، على الرغم من استعدادي للمغادرة، واصلت كلامها، تدفق هستيري قهري من الحديث الذي، مع أنه لم يكن له علاقة بالجوع، جعلني أفكّر بالطعام الذي تحتاجه، والذي كنت أخشى أن ترفضه في نهاية الأمر.

«إن الرجل الذي ينالني ينال الذهب الخالص»، سمعتها تقول بغتة، ثم أسندت يديها على الطاولة، وراحة كفيها متجهتين إلى الأعلى، وطلبت مني متوسلة أن أمعن النظر فيهما.

«هذا ما يمكن أن تفعله لك الحياة!» همهمت قائلة.

«لكنك جميلة»، قلت بدفء وبصدق، «إني لا أكترث بيديك».

أصرّت على أنّها لم تعد جميلة، وأضافت، «لكني كنت جميلة ذات يوم. أما الآن فأنا متعبة، منهكة. أريد أن أبتعد عن كلّ هذا.

باريس! إنها تبدو جميلة، أليس كذلك؟ لكنّها كريهة، كما أقول لك. كنت دائماً أعمل لكي أكسب رزقي... انظر، انظر إلى يدي مرة أخرى! لكن هنا، هنا لن يدعونك تعمل. إنهم يريدون أن يمتصوا دمك. أنا فرنسية ولا أحب أهل بلدي. إنهم قساة، سيئون، لا توجد لديهم رحمة نحونا».

أوقفتها بلطف لأذكّرها بالعشاء. «أليس من الأفضل أن نتحرك؟»، وافقت. كانت لا تزال سارحة، وتشتعل استياء وسخطاً على بني قومها القساة. لكنها لم تتزحزح، بل راحت تجيل النظر بعينيها في أرجاء التيراس. تساءلت ماذا دهاها عندما هبّت فجأة على قدميها، ومالت فوقي قلقة، وسألت إن كنت لا أمانع في أن أنتظر بضع دقائق. وأوضحت بسرعة أن لديها موعداً مع رجل عجوز في مقهى عند ناصية الشارع. وقالت إنها لا تظن أنه لا يزال ينتظرها هناك، لكن لا بأس إن تحققت من ذلك. فإن كان هناك، فهذا يعني أنها ستلتقي به لفترة قليلة، ثم تعود وتنضم إليّ بأسرع ما يمكنها. قلت لها ألا تقلق بشأني. «خذي وقتك وخذي ما يمكنك أن تأخذيه من ذلك العجوز الأبله. فأنا لست مشغولاً، ولا يوجد لدي ما أفعله»، وأضفت، «سأجلس هنا وأنتظر. ستتعشين معي، تذكّري ذلك».

رحت أنظر إليها وهي تسير مبتعدة في الشارع ثم عرّجت على المقهى. ساورني الشك بأنها لن تعود. عجوز ثري، على الأرجح أنه القواد الذي تعمل لحسابه، وقد هربت مني الآن وعادت إليه بهدوء. يمكنني أن أراه وهو يقول لها إنها لا بد حمقاء لأنها قبلت موعداً على العشاء مع شخص أمريكي أحمق. فهو سيشتري لها سندويشة وبيرة، وستخرج للعمل ثانية. وإذا أبدت أي احتجاج، فإنها ستتلقى صفعة على وجهها.

ولدهشتي، عادت بعد أقل من عشر دقائق. كان يبدو أنها أصيبت بخيبة

أمل، ولم تكن تشعر بالاستياء، وقالت: «من النادر أن يحافظ رجل على وعده». بالطبع، باستثناء السيد وينتشيل الذي كان مختلفاً. وأضافت، «كان يحافظ دائماً على وعده، حتى لحظة ذهابه إلى أمريكا».

كان صمت السيد وينتشيل يربكها حقاً. فقد وعد بأنه سيكتب لها بانتظام، لكنها لم تتلق سطراً واحداً منه خلال الشهور الثلاثة الماضية منذ أن غادرها. راحت تفتّش في حقيبتها بحثاً عن بطاقته. فإذا كتبت لها رسالة بلغتي الإنكليزية، فلعلها تحصل على جواب منه. يبدو أنها أضاعت البطاقة في مكان ما، لكنها مع ذلك تذكّرت أنه كان يقيم في نادٍ رياضي في نيويورك، وقالت إن زوجته تعيش هناك أيضاً. عندما جاء النادل، طلبت كوباً آخر من القهوة بدون حليب. كانت الساعة الحادية عشرة أو أكثر قليلاً، وكنت أتساءل أين يمكننا أن نجد في تلك الساعة مطعماً رخيصاً دافئاً ومريحاً كالذي كانت تفكر به.

كنت لا أزال أفكّر بالسيد وينتشيل، وبالنادي الرياضي الغريب الذي يقيم فيه، عندما سمعتها تقول وكأن صوتها آتٍ من مكان بعيد ـ «اسمع، لا أريدك أن تنفق نقوداً كثيرة عليّ. أرجو أن لا تكون غنياً؛ إني لا أبالي بنقودك. إن ما يسعدني حقاً هو أن أتحدث معك. لا تعرف كيف يشعر المرء عندما يُعامل كإنسان!» ثم عادت تتحدث عن كوستاريكا وعن الأماكن الأخرى التي كانت تمنح فيها نفسها للرجال، وكيف أنها لم تكن تبالي بذلك لأنها كانت تحبهم؛ وكيف أنهم يتذكّرونها دائماً لأنها كانت، عندما تمنح نفسها لرجل، تمنح نفسها جسداً وروحاً. ونظرت ثانية إلى يديها، ثم ابتسمت ابتسامة باهتة ولفّت قطعة الفراء القاسية حول حنجرتها بشدة.

لا يهم مدى التلفيق في حديثها، لأني كنت أعرف أن مشاعرها كانت صادقة وحقيقية. ولكي أسهّل الأمر عليها، اقترحت، ربما بفظاظة شديدة، أن تقبل أخذ النقود التي بحوزتي ثم أودّعها. حاولت أن أخبرها أنني لم أكن أريد أن أبقى معها وأجعلها تشعر بالامتنان على شيء صغير مثل وجبة طعام، وألمحت إلى أنها ربما

تفضّل أن تبقى وحدها. ربما كانت تريد أن تبقى وحدها، وتشرب حتى تسكر، ثم تبكي. قلت ذلك برقة ولباقة بقدر ما أستطيع.

ومع ذلك لم تبذل أي جهد لأن تذهب. كان ثمة صراع يدور في داخلها، فقد نسيت أنها كانت تشعر بالبرد والجوع. لا ريب أنها ربطتني برجال آخرين كانت تحبهم، وجعلتني أتماهى معهم، أولئك الذين منحتهم نفسها روحاً وجسداً، والذين سيتذكرونها دائماً، على حد قولها.

بدأ الوضع يصبح دقيقاً ورهيفاً إلى حد أنني توسلت إليها بأن تتكلم بالفرنسية؛ فلم أكن أريد أن أسمعها وهي تفسد وتشوه الأشياء الجميلة الرقيقة التي كانت تقولها بعد أن تترجمها إلى إنكليزية كوستاريكا المشوّهة.

«أقول لك»، قالت، «لو كان أيّ رجل آخر غيرك لما حدثته باللغة الإنكليزية التي لم أتحدّث بها منذ زمن بعيد. فأنا أتعب عندما أتحدث بالإنكليزية، لكنني لا أشعر الآن بأي تعب. أظن أنه من الجميل أن تتحدث بالإنكليزية إلى شخص يفهمك. في بعض الأحيان، أخرج مع رجل لا يكلمني أبداً، حتى أنه لا يريد أن يعرف من *أنا*، *مارا*. إنه لا يكترث بشيء إلا بجسدي. ماذا يمكنني أن أمنح رجلاً كهذا؟ تحسسني، كم أنا حارّة... إني أحترق».

في التاكسي، عندما كنا متجهين إلى جادة واغرام، بدا أنها بدأت تفقد سيطرتها على نفسها. «إلى أين ستأخذني؟» سألتني، كما لو كنا قد أصبحنا في منطقة مجهولة غريبة من المدينة. فقلت: «إننا نقترب من أفنيو واغرام. ما خطبك؟» تطلعت حواليها بارتباك، وكأنها لم تسمع عن هذا الشارع. وعندما رأت تعابير الدهشة على وجهي، شدتّني إليها وعضتني من فمي. عضتني بقوة مثل حيوان. أمسكتها بقوّة، وأدخلت لساني في فمها. كانت يدي على ركبتها؛ سحبت فستانها إلى الأعلى وراحت يدي تجوس فوق اللحم الحار. بدأت تعض ثانية، أولاً في الفم، ثم على الرقبة، ثم في الأذن. وفجأة تركتني وقالت «يا إلهي، انتظر قليلاً، انتظر، أرجوك».

كنا قد تجاوزنا المكان الذي كنت أريد أن أخذها إليه. انحنيت إلى الأمام وطلبت من السائق أن يعود. عندما ترجلنا من السيارة، بدا الذهول عليها. كان مقهى كبيراً، مثل مارينيان، وكانت هناك فرقة موسيقية تعزف. كان عليّ أن ألاطفها وأقنعها بالدخول.

ما إن طلبت طعامها حتى استأذنت وهبطت إلى الطابق السفلي لترتب نفسها. عندما عادت لاحظت لأول مرة أن ثيابها كانت رثّة وبالية. أسفت لأنني أرغمتها على المجيء إلى مثل هذا المكان المتلألئ بالأضواء. وبينما كانت تنتظر لحم العجل الذي طلبته، أخرجت مبرداً طويلاً وراحت تقلّم أظافرها. كان طلاء الأظافر قد زال من بعض أظافرها، مما جعل أصابعها تبدو أبشع مما كانت. وعندما جاء طبق الحساء وضعت المبرد جانباً، ووضعت مشطها إلى جانب مبرد الأظافر. دهنت لها قطعة خبز بالزبدة، وعندما قدمتها لها، احمّر وجهها خجلاً. راحت تبتلع الحساء بسرعة، ثم بدأت تلتهم قطعاً كبيرة من الخبز، مطرقة رأسها كما لو كانت تخجل من طريقة تناولها الطعام المفترسة. وفجأة رفعت رأسها، وأمسكت يدي بحماسة، وقالت بصوت منخفض، وكأنها تفضي بسرّ: «اسمع، إن مارا لا تنسى أبداً. لن أنسى أبداً الطريقة التي حدثتني بها الليلة. إنها أفضل بكثير مما لو أعطيتني ألف فرنك. انظر، لم نتكلم عن ذلك بعد، *لكن* ـ إذا لم تكن تريد أن تذهب معي... أعني...»

«لنقل فرضاً أننا لم نتكلم الآن»، قلت، «لا أقصد أنني لا أريد أن أذهب معك. لكن...».

«أفهم»، قالت باندفاع، «لا أريد أن أفسد بادرتك الجميلة. إني أفهم قصدك، *لكن* ـ عندما تريد أن ترى مارا» ـ وبدأت تفتش في حقيبتها ـ «أعني لا يتعين عليك أن تعطيني أيّ شيء. هل تستطيع أن تخابرني غداً؟ لماذا لا تدعني أدعوك إلى العشاء؟».

كانت لا تزال تبحث عن قصاصة الورق. مزّقت قطعة صغيرة من المنديل

الورقي، وكتبت عليها بقرمة قلم رصاص كبيرة اسمها وعنوانها بخط مخربش. كان اسماً بولونياً. لم أعرف اسم الشارع. قالت: «إنه في حي سان بول»، ثم أضافت، «أرجوك لا تأتِ إلى الفندق. إني أقيم هناك موقتاً».

نظرت إلى اسم الشارع ثانية. ظننت أنني أعرف حي سان بول جيداً. وكلما نظرت إلى الاسم أكثر، ازدادت قناعتي بأن لا وجود لهذا الشارع، ولا في أيّ جزء من باريس. لكن لا يستطيع المرء أن يتذكر أسماء الشوارع كلها.

«إذاً، أنتِ بولونية؟»

«لا، أنا يهودية. لقد ولدت في بولونيا. على كل حال، هذا ليس اسمي الحقيقي».

لم أفه بكلمة. فقد مات الموضوع بالسرعة التي ولد فيها.

بعد أن تناولنا الطعام بقليل، أدركت أن رجلاً يجلس قبالتنا يولينا انتباهه. كان رجلاً فرنسياً عجوزاً بدا أنه مستغرق في صحيفته؛ لكني لاحظت أنه كان ينظر بين الحين والآخر من فوق حافة الصحيفة ليلقي نظرة سريعة على مارا. كان وجهه لطيفاً، ويبدو أنه رجل موسر. وأحسست أن مارا ترمقه بعينيها.

انتابني الفضول لمعرفة ماذا ستفعل إذا ما تركتها بضع لحظات. لذلك استأذنتها بعد أن طلبنا القهوة، وهبطت الدرجات إلى الطابق السفلي إلى الحمّام. ومن هدوئها وهي تنفث سيجارتها، أدركت عندما عدت أنهما رتبا كل شيء. كان الرجل منهمكاً تماماً في صحيفته، كان يبدو أن ثمة اتفاقاً ضمنياً ينتظرهما بعد أن تنتهي مني.

عندما جاء النادل، سألته كم الساعة. فقال الواحدة تقريباً. قلت لها: «لقد تأخر الوقت يا مارا، يجب أن أذهب الآن». وضعت يدها على يدي، ونظرت إليّ بابتسامة عارمة. وقالت: «ليس من الضروري أن تلعب هذه اللعبة معي. أعرف لماذا تركت الطاولة. حقاً إنك رجل لطيف للغاية، لا أعرف كيف أشكرك. أرجوك لا تهرب. لم يكن من الضروري أن تفعل ذلك، يمكنه أن

ينتظر. لقد طلبت منه ذلك ... انظر، دعني أمشي معك قليلاً. أريد أن أتحدث معك قليلاً قبل أن نفترق».

تمشّينا في الشارع صامتين. «ألم تغضب مني؟» سألتني، وأمسكت بذراعي.

«لا، يا مارا، بالطبع لم أغضب منك».

«هل تحب إحداهن؟» سألت بعد لحظات.

«نعم، يا مارا».

لاذت بالصمت مرة أخرى. مشينا شارعاً آخر في صمت بليغ، وعندما وصلنا إلى شارع معتم تماماً، طوقتني بذراعيها، وأمسكتني من ذراعي بقوة وهمست... «تعال من هنا». تركتها توجهني إلى الشارع المعتم. ازداد صوتها بحة. كانت الكلمات تتدفق من فمها شذر مذر. لا أذكر الآن ما قالته وما فعلته.

أظن أنها كانت تعرف متى بدأ الفيض يتدفق من شفتيها. راحت تتكلّم بشكل جامح، على نحو مسعور، وكأنها تقاوم إحساساً يهيمن عليها بأنها ستهلك. مهما كانت، فلم يعد لها اسم. كانت مجرد امرأة، مجروحة، مهدمة، منكسرة، مخلوق يخفق بجناحيه العاجزين في الظلام. لم تكن تخاطب أحداً، وعلى أقل تقدير، لم تكن تخاطبني؛ لم تكن تتكلّم مع نفسها أيضاً، ولا مع الله. كانت مجرد جرح ثرثار عثر على صوت. وبدا أن الجرح قد نكأ في العتمة وأحدث حوله مساحة يستطيع أن ينزف فيها بدون خجل أو شعور بالمهانة. وظلت طوال الوقت تقبض على ذراعي وكأنها تريد أن تتأكد من حقيقة وجودي؛ وأخذت تضغط عليها بأصابعها القوية، وكأنها تريد أن تنقل بلمسة أصابعها المعنى الذي تحتويه كلماتها.

في غمرة هذا النزيف من الثرثرة توقّفت فجأة تماماً. «ضمني بذراعيك»، قالت متوسلة، «قبّلني، قبّلني كما كنت تفعل في التاكسي». كنا واقفين بالقرب من مدخل قصر مهجور ضخم. دفعتها إلى الحائط، وطوقتها بذراعي، وغصنا في عناق مسعور. أحسست بأسنانها تلامس أذني. طوّقت خصري بذراعيها؛ شدتني

إليها بكلّ قوّتها. وراحت تدمدم بحماسة وشهوانية: «إن مارا تعرف كيف تحبّ. مارا ستفعل أيّ شيء لك...ضمني إليك... بقوة أكثر، بقوة أكثر، يا حبيبي...». وقفنا هناك، عند المدخل، أحدنا يمسك بالآخر، نتأوه، نهمهم عبارات غير متماسكة. كان أحدهم يقترب بخطوات ثقيلة تنذر بالسوء. انفصلنا، وبدون كلمة، صافحتها، ثم ابتعدت عنها. وبعد أن ابتعدت بضع ياردات، التفت يدفعني إلى ذلك صمت الشارع المطبق. كانت لا تزال واقفة حيث تركتها. لبثنا واقفين ساكنين عدّة دقائق، نبذل جهداً لنرى بعضنا في الظلام. عندها انطلقت مندفعاً نحوها.

قلت لها: «انظري يا مارا، لنفترض أنه لم يكن هناك؟»

«أوه، سيكون هناك»، أجابت بصوت يخلو من أي نبرة.

قلت: «اسمعي يا مارا، من الأفضل أن تأخذي هذا... عسى ولعل»، ورحت أفتش في جيبي ودسست النقود التي وجدتها في يدها. استدرت وغادرت بسرعة، وودعتها بفظاظة من وراء كتفي. هكذا إذن، قلت لنفسي، ورحت أغذّ خطاي. وفي اللحظة التالية، سمعت وقع أقدام تجري خلفي. التفت لأجدها فوقي، لاهثة. ألقت بذراعيها حولي ثانية، وتمتمت كلمات شكر بإسراف. وفجأة أحسست بجسدها يهوي. كانت تحاول أن تجثو على ركبتيها. سحبتها إلى الأعلى بقوة، وأمسكتها من خصرها على امتداد ذراعي، وقلت: «يا إلهي، ما خطبك. ألم يعاملك أحد باحترام طوال حياتك؟» قلت ذلك بشيء من الغضب. وفي اللحظة التالية، كان بإمكاني أن أقطع لساني. وقفت هناك في الشارع المعتم وغطت وجهها بيديها، مطرقة رأسها، وراحت تنشج نشيجاً يحطم القلب. كانت ترتعش من قمة رأسها حتى أصابع قدميها. أردت أن أطوقها بذراعي؛ أردت أن أقول شيئاً يريحها، لكنّي لم أستطع. أحسست بالشلل. وفجأة، مثل حصان خائف، جفلت. ورحت أغذّ السير، وكان نشيجها لا يزال يطرق أذني. مضيت في طريقي، أسرع أكثر مثل ظبي جافل، حتى وصلت إلى مكان تتلألأ فيه الأضواء.

«بعد عشر دقائق ستكون واقفة عند ناصية شارع كذا وكذا، وترتدي ثوباً سويسرياً منقّطاً بالأحمر وتضع حقيبة يدوية تحت ذراعها...».

ظلّت كلمات كارل تتردد في رأسي. رفعت رأسي. كان هناك قمر، لم يكن فضياً بل زئبقياً. كان يسبح في بحر من الدهن المجمّد. دائري، مكور وكأنه حلقة ضخمة مرعبة من الدم. وقفت مذهولاً. بدأ جسدي يرتعش. وفجأة، ومن دون سابق إنذار، مثل قطرة دم كبيرة، انفجرت في بكاء مرعب. رحت أجهش مثل طفل.

بعد أيام قليلة كنت أتمشّى في الحي اليهودي. لا يوجد هناك شارع يحمل الاسم الذي قالته لي في منطقة سان بول، ولا في أي منطقة أخرى في باريس. عدت إلى دليل الهاتف لأجد أن هناك فنادق عدّة تحمل ذات الاسم الذي أعطته لي، لكن لم يكن أحد منها قريباً من سان بول. لم أفاجأ، بل اعترتني الحيرة فقط. ولكي أكون صادقاً، لم أفكر بها كثيراً منذ أن أخذت أجري هارباً في ذلك الشارع المعتم.

بالطبع أخبرت كارل بذلك. بعد أن استمع إلى القصّة قال شيئين اثنين علقا في رأسي.

«أظن أنك تعرف بمن ذكّرتك؟»

عندما قلت لا، ضحك. «فكّر بالموضوع»، قال، «ستتذكّر».

كانت الملاحظة الأخرى نموذجية عنه: «كنت أعرف أنك ستلتقي بشخص. لم أكن نائماً عندما غادرت. كنت أتظاهر بالنوم. لو كنت أخبرتك ماذا سيحدث لك، لأخذت اتجاهاً آخر لتثبت أنني مخطئ».

بعد ظهر يوم السبت ذهبت إلى الحي اليهودي. انطلقت إلى ساحة دي فوج التي لا أزال أعتبرها من أجمل الساحات في باريس. ولما كان اليوم يوم سبت، كان الحي يعجّ بالأطفال. لا يمكن الذهاب إلى ساحة دي فوج إلا في الليل، عندما يتملكك الهدوء وترغب في أن تتمتّع بأن تخلو إلى نفسك. إنها ليست

ساحة للعب، بل ساحة ساكنة، تصلح للذكريات، تساعد على الشفاء، حيث يمكن للمرء أن يستجمع قواه.

بينما كنت أمرّ تحت القنطرة المفضية إلى فوبور سان أنطوان، تذكرت كلمات كارل. وفي الحال تذكّرت من تشبه مارا. كانت مارا ـ سان لويس، التي كنت أعرفها باسم كريستين. كنا قد أتينا إلى هنا في عربة ذات مساء، قبل أن نتوجه إلى المحطة. كانت ستسافر إلى كوبنهاغن ولن أراها بعد ذلك أبداً. كانت قد اقترحت أن نزور ساحة دي فوج ثانية. وبما أنها كانت تعرف أنني كنت آتي وحدي إلى هنا غالباً في نزهاتي الليلية، فقد كانت ترغب في أن تورّثني ذكرى عناق أخير في هذا الحي الجميل حيث كانت تلعب مثل طفلة. لم تذكر شيئاً عن هذا المكان الذي يرتبط بطفولتها من قبل. كنا نتحدّث دائماً عن سان لويس، وكنا نذهب غالباً إلى البيت الذي ولدت فيه، وكنا نمشي في أرجاء الجزيرة الضيقة في الليل في طريقنا إلى البيت، عائدين من لقاء، وكنا نتوقّف دائماً لحظة أمام البيت القديم وننظر إلى النافذة حيث كانت تجلس عندما كانت طفلة.

ولما كان لا يزال أمامنا ساعة كاملة أو أكثر لوصول القطار، فقد طلبنا من سائق العربة أن يذهب، وجلسنا على الرصيف بالقرب من القنطرة القديمة. كان يسود جو غير عادي من المرح في تلك الأمسية، فقد كان الناس يغنّون، والأطفال يرقصون حول الطاولات، يصفّقون، ويتعثّرون بالكراسي، يقعون وينهضون مبتسمين. بدأت كريستين تغني لي أغنية صغيرة كانت قد تعلّمتها في طفولتها. وبدأ الناس يشاركون في هذا الجو المرح. لم تكن تبدو أكثر جمالاً. كان من الصعب تصديق أنها ستستقل القطار بعد قليل وأنها ستخرج من حياتي إلى الأبد. كنا في غاية البهجة عندما غادرنا الساحة حيث كان يخيّل للمرء أننا كنا نمضي شهر عسل.

في شارع دي روزيرس، في الحي اليهودي، توقّفت عند الدكان الصغير

قرب الكنيس، حيث يبيعون سمك الرنغة والمخلل الحامض. لم تكن هناك الفتاة البدينة ذات الوجنتين الورديتين التي كانت تحييني باستمرار، الفتاة التي قالت لي ذات يوم، عندما كنا أنا وكريستين معاً، بأننا يجب أن نتزوّج بسرعة وإلا فإننا سنأسف على ذلك.

«إنها متزوّجة»، قلت ضاحكاً.

«لكنها ليست متزوجة بك!».

«هل تظنين أننا سنكون سعيدين معاً؟».

«لن تكونا معاً إلا إذا كنتما معاً. لقد خُلق أحدكما للآخر؛ يجب ألا يترك أحدكما الآخر، مهما حدث».

تجولت في الحيّ، متذكراً هذا الحديث الغريب، متسائلاً ماذا حلّ بكريستين. ثمّ تذكرت مارا وهي تنشج في الشارع المعتم، وللحظة راودتني فكرة مجنونة مزعجة وهي: ربما كانت كريستين تنشج أيضاً في نومها في غرفة كئيبة في أحد الفنادق في نفس اللحظة التي كنت أبتعد فيها عن مارا. وبين الفينة والأخرى، كان يتناهى إليّ أنّها لم تعد تعيش مع زوجها، وأنها كانت تنتقل من مكان إلى آخر، وحدها دائماً. ولم تكتب لي كلمة واحدة قط. بالنسبة لها، كان فراقاً نهائياً. كانت قد قالت: «إلى الأبد»، ومع ذلك، لم أكن أصدق أنها تركتني إلى الأبد بعقلها وقلبها عندما كنت أسير في الليل وأتذكرها كلما توقّفت أمام بيتها القديم في جزيرة سان لويس، ونظرت إلى النافذة. كان يجب أن نأخذ بنصيحة الفتاة البدينة ونتزوج، تلك كانت الحقيقة المحزنة. لو كنت أعرف مكانها لاستقللت القطار وذهبت إليها على الفور. كانت تلك الشهقات في العتمة، لا تزال تطّن في أذني. كيف يمكنني أن أعرف أنّ كريستين لم تكن تنشج أيضاً، الآن وفي هذه اللحظة بالذات؟ كم الساعة الآن! بدأت أفكّر بالمدن الغريبة التي يسود فيها الليل الآن، أو تكون في الصباح الباكر، أماكن وحيدة، مهجورة، حيث تذرف النساء المفجوعات والمهجورات دموع الكرب والحزن. أخرجت دفتر ملاحظاتي

ودوّنت الساعة والتاريخ والمكان... ومارا، أين هي الآن؟ لقد خرجت أيضاً، إلى الأبد. من الغريب كيف يدخل البعض حياة امرئ للحظة أو لحظتين، ثم يرحل إلى الأبد. ومع ذلك لا يوجد ثمة شيء عرضي في مثل هذه اللقاءات.

لعل مارا كانت قد أُرسلت لتذكرني بأني لن أصبح سعيداً إلا إذا وجدت كريستين ثانية...

بعد أسبوع، وفي بيت راقصة هندوسية، تعرفت على فتاة دانمركية جميلة كانت قد وصلت حديثاً من كوبنهاغن. من المؤكد أنها لم تكن من ذلك «النوع الذي يلائمني»، لكن لا يمكن إنكار أنها كانت رائعة الجمال. إحدى تلك الشخصيات النرويجية الأسطورية التي عادت إلى الحياة. وبالطبع، كان الجميع يغازلها ويتقرب منها. لم أعرها أي اهتمام واضح، مع أن عيني كانتا تتبعانها باستمرار، إلى أن أصبحنا معاً في الغرفة الصغيرة حيث قُدمت لنا بعض المشروبات. حينها، شرب الجميع ورقصوا، كان هناك الكثير من الشراب. كانت الحسناء الدانمركية تتكئ على الحائط وتحمل كأساً بيدها. تلاشى تحفظها. كانت تبدو وكأنها تنتظر أحداً يسليها. عندما اقتربت منها، قالت وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عريضة مغرية: «إذاً، أنت هو الرجل الذي يؤلّف هذه الكتب الفظيعة؟» لم أعبأ بالرد عليها. وضعت كأسي واقتربت منها أكثر والتصقت بها، ثم أخذت أقبلّها بصورة عمياء، وبشهوانية، وبعنف، وبهمجية. دفعتني بقوة عنها وأفلتت من بين ذراعي. لم تكن غاضبة. بل بالعكس، شعرت أنها كانت تتوقّع أن أكرّر هجومي عليها. «ليس هنا»، قالت بصوت عالٍ.

بدأت الفتاة الهندوسية ترقص، وأخذ المدعوون أماكنهم بهدوء حول الغرفة. ثم قادتني الفتاة الدانمركية، التي تبين أن اسمها كريستين، إلى المطبخ، مدعية أنها ستعدّ لي سندويشة.

«كما تعرف فأنا امرأة متزوجة»، قالت، وسرعان ما أصبحنا وحدنا. «نعم، وعندي طفلان، طفلان جميلان. هل تحبّ الأطفال؟»

«أحبّك أنت»، قلت، وضممتها إلي ورحت أعانقها وأقبّلها بنهم.

فقالت: «هل كنت تتزوّجني لو لم أكن متزوجة؟».

قالتها هكذا، فجأة وبدون أيّ تمهيدات. فوجئت كثيراً بأني قلت الشيء الوحيد الذي يستطيع الرجل أن يقوله في مثل هذه الظروف. فقلت نعم.

«نعم»، كرّرت، «أتزوّجك غداً... الآن، لو رضيتِ».

«لا تتسرع كثيراً»، قالت، «قد آخذ كلمتك على محمل الجد». قالت ذلك بصراحة إلى درجة أنني صحوت على الفور، أكاد أكون خائفاً. «أوه، لن أطلب منك أن تتزوجني على الفور»، تابعت كلامها بعد أن لاحظت فزعي، «أردت فقط أن أرى إن كنت من النوع الذي يتزوج. لقد مات زوجي. وأنا أرملة منذ أكثر من سنة».

كان تأثير هذه الكلمات عليّ أنها جعلتني داعراً. لماذا جاءت إلى باريس؟ من الواضح لكي تمتّع نفسها. كان جمالها ذلك السحر المغري البارد النموذجي الذي تتمتع به امرأة من أوروبا الشمالية التي يتصارع فيها الفسق والاحتشام حتى يتفوق أحدهما على الآخر. كانت تعرف أنها كانت تريدني أن أحدثها عن الحبّ. قل أيّ شيء تحبّ، افعل أيّ شيء تحبّ، لكن استخدم لغة الحبّ ـ كلمات عاطفية، رومانسية، ساحرة تخفي الحقيقة السافرة القبيحة للانقضاض الجنسي.

وضعت يدي مباشرة على فرجها الذي كان يشتعل ويلتهب مثل سماد طبيعي تحت ثوبها، وقلت: «كريستين، يا له من اسم رائع! امرأة مثلك فقط يمكن أن يكون لها مثل هذا الاسم الرومانسي. إنه يجعلني أفكّر بمنحدر جليدي، بأشجار التنوب التي تقطر بقطرات الثلج الرطب. لو كنتِ شجرة لاقتلعتك من جذورك. سأحفر الأحرف الأولى من اسمي على جذعك...»، رحت أردد هذا الهراء السخيف، ولم أتوقف عن ضمّها بقوة، ودفعت أصابعي في شقّها اللزج. لا أعرف إلى أي مدى ستدخل، هناك في المطبخ، لو لم تدخل مضيفتنا

وتقاطعنا. كانت قحبة فاسقة أيضاً. كان عليّ أن أنهي العمل معهما في الوقت نفسه. ومن باب التهذيب، عدنا أخيراً إلى الغرفة الكبيرة لنشاهد رقصة الفتاة الهندوسية. وقفنا وراء الآخرين في ركن معتم. وضعت إحدى يدي حول كريستين؛ ورحت بيدي الطليقة أفعل كل ما يمكنني أن أفعله.

انتهت الحفلة فجأة بسبب مشاجرة باللكمات نشبت بين شابين أمريكيين سكرانين. وفي غمرة هذه المعمعة، غادرت كريستين مع الدوق الذي كان يبدو منهكاً والذي كان قد أحضرها إلى هذا المكان. ولحسن الحظ، كنت قد أخذت عنوانها قبل أن تغادر.

عندما وصلت إلى البيت حكيت لكارل ما حدث لي. راح يهذر. «يجب أن ندعوها إلى العشاء ـ كلّما كان ذلك أسرع، كان أفضل». وقال إنه سيدعو إحدى صديقاته لتأتي، صديقة جديدة كان قد التقاها في سيرك ميدرانو. قال إنها تلعب ألعاباً بهلوانية في السيرك. لم أصدّق ولا كلمة قالها، لكنني ابتسمت ابتسامة عريضة وقلت حسناً.

حلّ المساء. كان كارل قد أعدّ العشاء، وكالمعتاد، كان قد اشترى أغلى أنواع النبيذ. وصلت لاعبة الأكروبات أولاً. كانت حذرة، ذكية، مفعمة بالحيوية، ذات قسمات رقيقة جميلة، وبسبب تسريحة شعرها المجعد، كانت تبدو مثل كلب بوميرانيان. كانت واحدة من تلك الأرواح السعيدة التي تجعلك ترغب في مضاجعتها على الفور. لم يتحدث عنها كارل كما كان يفعل عادة عندما يعثر على صيد جديد. كان يشعر بالارتياح لأنه وجد امرأة أخرى يستبدل بها إليان العنيدة.

«كيف تبدو لك؟» سألني بعد أن انتحى بي جانباً، «هل تظن أنها تفي بالغرض؟ إنها ليست سيئة كثيراً، أليس كذلك؟» ثم قال مستدركاً ـ «بالمناسبة، يبدو أن إليان متمسكة بك. لماذا لا تذهب إليها؟ إنها ليست سيئة في السرير، يمكنني أن أؤكد لك ذلك. يجب عليك ألا تضيّع وقتك في

الأشياء البدائية؛ فقط اهمس لها بضع كلمات رقيقة وأولجه فيها. إنها فرج يعمل مثل مضخة ماصة...»

عندما قال ذلك أشار إلى كورين، صديقته لاعبة الأكروبات، لتنضم إلينا. قال لها: «استديري، أريدك أن تريه مؤخرتك»، وراح يفرك ردفها بيده وكأنه يقيّمها، ثم قال لي: «المسها يا جوي. انظر كم هي ناعمة كالمخمل، ما رأيك؟».

كنت على وشك أن أفعل ما اقترحه عليّ عندما سمعنا قرعاً على الباب. «لا بد أن هذه فتاتك»، قال كارل، واتجه إلى الباب وفتحه. عندما رأى كريستين أطلق صرخة تشبه العواء، وألقى بذراعيه حولها، وجرّها إلى الغرفة وهو يقول: «إنها رائعة، إنها فاتنة! لماذا لم تخبرني كم هي جميلة؟».

خيّل إليّ أنه سيفقد رشده إعجاباً بها، وراح يرقص حول الغرفة، ويصفّق مثل طفل ويقول: «هيه، جوي، جوي، إنها رائعة. إنها أفضل «كس» يمكن أن تراه في حياتك».

التقطت كريستين كلمة «كس»، وسألت «ماذا تعني؟».

«إنها تعني انك جميلة، رائعة، متألقة»، قال كارل، ممسكاً بيديها بنشوة. كانت عيناه رطبتين مثل جرو.

كانت إنكليزية كريستين تكاد تكون بدائية؛ وكانت معرفة كورين باللغة الإنكليزية أقل، لذلك رحنا نتحدث بالفرنسية. وكفاتح شهية، احتسينا قليلاً من النبيذ الألزاسي. وضع أحدهم أسطوانة، وهنا بدأ كارل يغني بصوت ثاقب مرتفع، كان وجهه أحمر كالشمندر، وشفتاه مبللتين وعيناه تلمعان. وبين الحين والآخر، كان أحدنا يتجه إلى كورين ويقبّلها قبلة طويلة رطبة في فمها لنبدي لها أننا لم ننسها، لكن كلّ شيء كان موّجهاً إلى كريستين.

«كريستين!» قال، مداعباً ذراعها، ممسّداً إياها مثل قطّة. «كريستين! يا له من اسم سحري!» (في الحقيقة كان يكره هذا الاسم؛ وكان يقول إنه اسم غبي، يلائم بقرة أو حصاناً مصاباً بورم). «دعيني أفكّر»، وترتفع عيناه نحو السماء،

وكأنه يجاهد ليختار الاستعارة الدقيقة. «إنه مثل رباط هشّ تحت ضوء القمر. لا، ليس ضوء القمر ـ الشفق. في جميع الأحوال إنه اسم هشّ، رقيق، مثل روحك... ليعطني أحدكم كأساً آخر. يمكنني أن أفكّر بصور أجمل من تلك».

بطريقتها الواقعية، قاطعت كريستين العرض بالسؤال إن كان العشاء سيكون جاهزاً قريباً. تظاهر كارل بأنه صُدم، فصاح، «كيف يمكن لمخلوق جميل مثلك أن يفكّر بالطعام في لحظة كهذه؟».

لكن كورين كانت جائعة أيضاً. جلسنا، كان كارل لا يزال أحمر كالشمندر. كان ينقل نظراته الزائغة من واحدة إلى أخرى، وكأنه لا يعرف بعد أيهما سيلعق أولاً. من المؤكد أنه كان في مزاج يجعله يلعقهما من رأسيهما حتى قدميهما. بعد أن تناول بضع لقيمات، نهض وسال لعابه على كورين. ثم، كما لو كان قد تناول جرعة مخدر، انحنى فوق كريستين. كان التأثير ممتعاً لكنه جعلهم يشعرون بالدوار قليلاً. لا بد أنهم كانوا يتساءلون كيف ستنتهي الأمسية.

لم أكن قد لمست كريستين بعد. كنت أشعر بالفضول لأن أراقب سلوكها ـ كيف تتكلّم، كيف تضحك، كيف تأكل وتشرب. استمر كارل يملأ الكؤوس، وكأننا كنا نشرب عصير الليمون. بدت كريستين خجولة، قلت في نفسي، لكن سرعان ما بدأ مفعول النبيذ يجري في عروقها، وسرعان ما أحسست بيد فوق ساقي، تعصرها. أمسكتها ووضعتها بين ساقيّ. أبعدتها وكأنها خائفة.

بدأ كارل يمطرها الآن بالأسئلة عن كوبنهاغن، عن طفليها، عن حياتها الزوجية (نسي أن زوجها كان ميتاً). فجأة، وبدون سبب، نظر إليها بابتسامة خبيثة، وقال: «اسمعي يا صغيرتي، ما أودّ أن أعرفه هو هل يضاجعك جيداً بين الحين والآخر؟»

احمّر وجه كريستين. نظرت في عينيه، وأجابت ببرود شديد: «إن زوجي ميت».

كان أي شخص آخر سيشعر بالخجل، لكن ليس كارل. استوى واقفاً، توجه إليها بلطف، وقبّلها باحتشام فوق حاجبها، وقال بالفرنسية: «أحبك»، وعاد يخب إلى كرسيه. وبعد لحظة، راح يثرثر عن السبانخ وكيف أن لا طعم له.

ثمة شيء عن الشعوب الشمالية لا أفهمه، فلم ألتق بأي شخص من تلك الشعوب في حياتي، ذكراً كان أم أنثى، أعجبني. لا أعني بالتعبير عن ذلك، أن وجود كريستين كان مملاً، بل على العكس، سارت السهرة مثل آلة مشحمّة جيداً. انتهى العشاء، ونقل كارل لاعبة الأكروبات إلى الأريكة. استلقيت على السجادة مع كريستين في الغرفة الأخرى. كان هناك قليل من الممانعة في البداية، لكنها ما إن فتحت ساقيها وبدأ عصيرها يتدفق كسيل منهمر، حتى اندفعت بكل حماسة. وبعد بضع آهات وتشنّجات، أخذت تجهش بالبكاء. كانت تبكي على زوجها المرحوم، كما اعترفت. لم أستطع أن أفهم الأمر. أحسست بالرغبة في أن أقول لها: «لماذا تثيرين هذا الأمر الآن؟»، بذلت جهدي لأعرف بما تفكّر عن زوجها المرحوم. وقالت لدهشتي: «ماذا سيظن بي إذا رآني مستلقية على الأرض هنا معك؟» أحسست بأن هذا الأمر سخيف للغاية، وانتابتني الرغبة في أن أصفعها على ردفيها. رغبة شريرة تملكتني بأن أجعلها تفعل شيئاً يؤكد إظهار شعور حقيقي بالخزي والندم.

عندها فقط سمعت كارل ينهض ليذهب إلى الحمّام، ناديته لينضم إلينا لنشرب. قال: «انتظر دقيقة، هذه الكلبة تنزف مثل خنزيرة»، عندما خرج من الحمّام، قلت له باللغة الإنكليزية أن يجرّب حظّه مع كريستين. ثم استأذنت وذهبت إلى الحمّام. عندما عدت، كانت كريستين لا تزال مستلقية على الأرض، تدخن سيجارة. وكان كارل مستلقياً إلى جانبها، يحاول أن يفتح ساقيها بلطف. كانت مستلقية هناك بهدوء شديد مثل خيارة، ساقاها

متصالبتان، ووجهها ساهم. صببت مزيداً من النبيذ، ودخلت إلى الغرفة الأخرى لأتحدّث مع كورين. كانت هي الأخرى مستلقية وسيجارة بين شفتيها، مستعدة، كما أظن لجولة أخرى إذا ما حدثت. جلست بجانبها، ورحت أحادثها لكي أتيح الفرصة لكارل لأن ينهي ما يقوم به.

عندما ظننت أن كلّ شيء يجري على ما يرام، دخلت كريستين فجأة إلى الغرفة. في العتمة تعثّرت بالأريكة. أمسكتها وجررتها إلى جانب كورين. وبعد قليل، دخل كارل أيضاً وألقى بنفسه على الأريكة. لاذ الجميع بالصمت. رحنا نتقلب، محاولين أن نجد وضعية مريحة. أثناء ذلك، لمست يدي صدراً عارياً. كان مكوراً وقوياً، الحلمة مشرأبة ومغرية. أطبقت بفمي عليها. كان عطر كريستين هو الذي شممته. عندما حركت رأسي إلى الأعلى باحثاً عن فمها، أحسست بيد تنزلق إلى فتحة بنطالي. عندما تسلل لساني في فمها، تحركت قليلاً لأتيح لكورين أن تُخرج قضيبي، وسرعان ما أحسست بأنفاسها الدافئة تنفث عليه. وبينما أخذت تقضمه، أمسكت كريستين بشهوانية، ورحت أعضّ شفتيها ولسانها ورقبتها. كانت تبدو في حالة شهوانية غير عادية، تنخر وينبعث من فمها أكثر الهمهمات غرابة، وتصدر من جسدها تشنجات ورعشات. وبذراعيها حول رقبتي، أمسكتني بإحكام؛ كان لسانها قد ثخن وكأنه امتلأ بالدم. جاهدت لأن أخلّص قضيبي من فرن فم كورين اللاهب المذيب، لكن بدون جدوى. بلطف حاولت أن أحررّه منها، لكنها ظلت متعلقة به مثل سمكة، تمسكه بأسنانها.

في تلك الأثناء، أخذت كريستين ترتعش بعنف أكبر، وكأن رعشة الجماع انتابتها. تمكنت من تخليص ذراعي التي كانت عالقة تحت ظهرها، ونقلت يدي إلى أسفل جذعها. وتحت الخصر مباشرة، أحسست بشيء صلب؛ كان مكسواً بالشعر. دفعت أصابعي فيه. «هيه، هذا أنا»، قال كارل، مبعداً رأسه. عند ذلك بدأت كريستين تجرني بعيداً عن كورين، لكن كورين لم تتركني.

ألقى كارل بنفسه فوق كريستين التي كانت مستلقية إلى جانبها. كنت مستلقياً بحيث كان بإمكاني أن أداعب مؤخرتها، بينما كان كارل ينقض فوقها. خيّل إليّ أنها ستجّن من الطريقة التي كانت تتلوّى فيها، تتأوه وتهذر.

وفجأة انتهى كل شيء. وفجاة وثبت كريستين خارج السرير واتجهت إلى الحمّام. للحظة أو لحظتين، لذنا ثلاثتنا بالصمت. ثم، وكأننا أصبنا بالجنون نفسه، انفجرنا في ضحكة مدوية. كانت ضحكة كارل الأعلى والأشد من بين ضحكاتنا جميعنا إحدى ضحكاته المجنونة الهستيرية التي يبدو أنها لن تنتهي أبداً.

كنا لا نزال نضحك عندما فُتح باب الحمّام بقوة فجأة. ووقفت كريستين تحت وهج الضوء، وجهها أحمر، وقالت غاضبة إنها تريد أن تعرف أين ثوبها.

«إنك مثير للقرف»، صرخت، «دعني أخرج من هنا!».

بذل كارل محاولة لتهدئة مشاعرها المتكدرة لكنني أوقفته وقلت له: «دعها تذهب إذا كانت ترغب»، حتى أنني لم أنهض لأبحث عن أشيائها. سمعت كارل يقول لها شيئاً بصوت خافت، ثم سمعت صوت كريستين الغاضب يقول: «دعني وشأني ـ أيها الخنزير القذر!» ثم صُفق الباب وذهبت.

«هذه هي حسناؤك الاسكندنافية»، قلت.

«نعم، نعم»، همهم كارل، وهو يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً مطرق الرأس، مدمدماً، «إنه شيء سيئ، إنه شيء سيئ».

«ما هو الشيء السيئ؟» قلت، «لا تكن أحمق! لقد منحناها وقتاً لن تنساه في حياتها».

بدأ يضحك بجنون، «ماذا لو كانت مصابة بالسفلس؟» قال، وأسرع نحو الحمّام، حيث راح يغرغر حنجرته بصوت صاخب، «اسمع يا جوي»، صاح، وبصق السائل من فمه، «برأيك ما الذي جعلها تغضب هكذا؟ هل لأننا كنا نضحك بشدة؟»

«إنهن جميعهن هكذا»، قالت كورين *"La pudeur."* .

قال كارل: «أنني جائع. لنجلس ونتناول وجبة أخرى. فقد تغيّر رأيها وتعود»، ودمدم شيئاً لنفسه، ثم أضاف، «شيء غير معقول».

هنري ميللر

مدينة نيويورك،

أيار/ مايو ١٩٤٠

أعيدت كتابتها في بيغ سور، أيار/ مايو ١٩٥٦

المحتويات

هذا الكتاب

كان الوقت متأخراً بعد ظهر يوم ماطر عندما رأيت زائرة جديدة في مقهى ويبلير. كنت قد خرجت لشراء بعض الحاجيات، وكانت ذراعيّ محملتين بالكتب وأسطوانات الفونوغراف. لا بد أنني كنت قد تلقيت حوالة مالية غير متوقّعة من أمريكا في ذلك اليوم، لأنه كان لا يزال في جيبي بضع مئات من الفرنكات، بالإضافة إلى الأشياء التي اشتريتها.

مكتبة بغداد